الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولى الشعراوى

الوصايا

نال شرف إعداده ومراجعته
مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

مكتبة التراث الإسلامي

الطبعة الأولى
جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ - يوليو ٢٠٠١ م



مكتبة التراث الإسلامي
8 شارع الجمهورية عابدين القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٠٨٠٢
الترقيم الدولي I. S. B. N. 977- 260 - 243- 1

Email: abdallahaggag@hotmail.com

Islamic Turath Book Shop ت: 3911397 - 3925677 فاكس: 3913406

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للَّه حمدًا طيبًا مباركًا فيه على كريم جوده ، حمدًا يحيط بمعانى الثناء على جميع وجوهه ، ونشكره سبحانه على نعمه التى لا تحصى ولا تعد على جميع عبيده .

وصلاة اللَّه تعالى وسلامه على النَبىِّ الأُمِىِّ ، التقى ، النقىِّ ، السيد القريب ، الولىِّ الحبيب ، صاحبِ الخُلق العظيم الذى أرسله ربه ليتمم مكارم الأخلاق ، ورضى اللَّه تعالى عن آله الأكرمين ، وأزواجه الطاهرات المُطهرات أُمهات المؤمنين ، وأصحابه الغُرِّ الميامين ، وجميع التابعين الطائعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وأشهد ألاَّ إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، شهادة مُقرٍّ بربوبيته ، عارفٍ بوحدانيته .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليله ، اصطفاه لوحيِهِ ، وختم به أنبياءه ، وجعله حجة على جميع خلقه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢]

وامتدحه سبحانه فى كتابه الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

ثم أما بعد .. اعلم يا أخى - وفقك الله تعالى - أن أول شىء يجب عليك معرفته بعد معرفة الله سبحانه ، وإفراده تعالى بالوحدانية ، هو متابعة النبىّ ﷺ والاقتداء به . قال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وقد رتَّب الله سبحانه وتعالى حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة ، وحصول الشرور فى الدنيا والآخرة فى القرآن العظيم على الأعمال ، ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا فى القرآن الكريم يزيد على ألف موضع ، ومن أوجب هذه الأعمال طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ورد الأمر بذلك فى القرآن العظيم فى مواضع كثيرة ، منها :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ .

[آل عمران : ٣٢] .

وقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وجعل سبحانه وتعالى من ثمرة الطاعة ومثوبة الطائعين :

قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

[آل عمران : ١٣٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [النساء : ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور : ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ .

[الفتح : ١٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [الحجرات : ١٤]

وحذر سبحانه وتعالى من عدم متابعة الرسول ﷺ وإطاعة أمره والتسليم له .

قال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

وبالجملة فالقرآن العظيم مليء بالحض على الطاعة والتأدُّب مع رسول الله ﷺ . ورأس الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه وآله كمال التسليم له والانقياد لأمره وتَلَقِّي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسمِّيه معقولًا ،

أو يُقَدَّمَ عليه آراء الرجال ، فيُوحِّدَه بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما وحّد المُرسِلَ سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله تعالى إلا بهما : توحيد المرسِلِ سبحانه ، وتوحيد متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

ولعمر الحق لقد كان الإمام الهرويّ نافذ البصيرة حين انتزع منزلة « الأدب » فى كتابه القيم « منازل السائرين » والذى شرحه العلامة ابن القيم وسماه : « مدارج السالكين » من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] . قال ابن عباس : « أَدِّبُوهم وعَلِّمُوهم » (١) .

وهذا الكتاب الذى بين يديك : جليل القدر ، عظيم النفع ، حافل بالعلم القائم على الأصول الصحيحة والفهوم السديدة ،

---

(١) من مقدمة كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح [٦/١] ، ومدارج السالكين لابن القيم [٣٧٥/٢] ، ومكارم الشريعة للأصفهانى [ص : ١١١] .

جامعًا لمكارم الأخلاق ومعاليها ، والذى من شأنه أن يعين على تحقيق سعادة الدارين بكمال متابعة هدى النبى ﷺ فى واحد من أهم أمور الدين ألا وهو « الخُلُق » فقد ثبت عنه صلوات اللَّه تعالى وسلامه عليه وآله أنه قال : « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صالح الأخلاق » [1] .

فكأن مقصود الرسالة المحمدية هو تنمية الإحساس الأخلاقى

---

(1) رواه أحمد فى المسند [٣٨١/٢] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه ، وقال الأرناؤوط : صحيح ، وهذا إسناد قوى ، رجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن عجلان ، فقد روى له مسلم متابعة ، وهو قوى الحديث .

قال ابن عبد البر فى التمهيد [٣٣٢/٢٤] قوله : « لأُتَمِّمَ صالح الأخلاق » يدخل فى هذا المعنى الصلاح والخير كله ، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، فبذلك بُعث ليتممه ، وقد قالت العلماء : إن أجمعَ آيةٍ للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

فى بنى البشر ، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا إليها على بصيرة [1] .

ومن هنا كان التأكيد على الثمرة الأخلاقية لكثير من العبادات بحيث تفارق كونها طقوسًا وشعائر مبهمة ، وتعمل على تحرير الطاقات الأخلاقية الكامنة فى الكينونة الإنسانية فيترقى هذا الكائن فى مدارج الكمال الإنسانى ويصبح وجوده ذا مغزى عميق تتجلى من خلاله القدرة الإلهية فى صياغة المجتمع الفاضل والحياة الكريمة لبنى الإنسان ، ومن هنا نفهم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] . إلى غير ذلك من الآيات التى تؤكد على المغزى الأخلاقى والروحى للعبادات والشعائر .

---

(١) انظر خُلق المسلم للشيخ محمد الغزالى رحمة الله تعالى عليه [ص : ٦] .

فإذا كان ذلك كذلك ، فاعلم أن هناك علاقة وثيقة جدًا بين الدين والأخلاق (١) . وأن الأخلاق إنما هى دين تحول إلى قواعد للسلوك ، أى : تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين وفقًا لحقيقة الوجود الإلهى (٢) .

والمتأمل لأحوال المسلمين الآن يدرك ببصيرته النافذة ما آلت إليه الأخلاق من تراجع وانحلال ، مما حدا بالكثير من العلماء إلى تصنيف الكتب التى تعالج كثيراً من المفاسد الأخلاقية الناشئة عن ضعف التمسك بالدين .

ويأتى فى طليعة هؤلاء العلماء الأجلاء الذين تصدوا بقولهم وسلوكهم لتوجيه الناس إلى أصول الأخلاق ومحاسن الفضائل ومداواة النفوس فى عصرنا هذا الملئ بالمناهج الهدَّامة التى تقدم العقل على النقل ، والفساد الأخلاقى الذى أفضى

---

(١) مقدمة كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح [ص : ٨، ٩] .

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ، على عزت بيجوفتش [ص : ١٩٣] .

إلى خور العزائم ، والنكوص عن متابعة هدى أكمل الخلق صلوات اللّٰه تعالى وسلامه عليه وآله .

فضيلة العارف باللّٰه الشيخ الإمام

« محمد متولى الشعراوى »

شيخ الزمان ، وترجمان القرآن ، الذى ملأ الدنيا بنور القرآن ، وجمع الناس على ذكر اللّٰه وتلاوة كتابه وصرفهم عن لهو الدنيا ، وبذل جهودًا عظيمة فى سبيل تصحيح المفاهيم ، ورد شبهات الطاعنين فى القرآن العظيم ، وتصدى بحزم وقوة لهؤلاء الجهلانيين ، وأبدع رضى اللّٰه تعالى عنه فى الاستنباط من القرآن الكريم ، وجهر بالحق فى وجه كل من حاد عنه ، فكان رحمة اللّٰه تعالى عليه فى هذا العصر « أمة وحده » جمع اللّٰه فيه كل فضائل الخير ، وخلف لنا تفسيراً للقرآن الكريم من أصح كتب التفسير وأشملها ، كتب فى مقدمته :

« ... فهذا حصاد عمرى العملى ، وحصيلة جهادى الاجتهادى ، شرفى فيه أنى عشقت كتاب اللّٰه ، وتطامنت

لاستقبال فيض الله ، ولعلى أكون قد وفيت حق إيمانى ، وأديت واجب عرفانى » [(١)] .

فالزم يا أخى الأدب ، وفارق الهوى والغضب ، واعمل فى أسباب التيقظ ، واتخذ الرفق حزبًا ، والتأنى صاحبًا ، والسلامة كهفًا ، والفراغ غنيمة ، والدنيا مطية ، والآخرة منزلًا .

قال الحسن رضى الله تعالى عنه : إن الله تعالى لم يجعل للمؤمن راحة دون الجنة .

واحذر مواطن الغفلة ، ومخاتل العدوّ وطربات الهوى ، وضراوة الشهوة وأمانىّ النفس ، فإن رسول الله ﷺ قال : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » [(٢)] . وإنما صارت أعدى أعدائك لطاعتك لها .

وكل أمر لاح لك ضوؤه بمنهاج الحق ، فاعرضه على

---

(١) كلمة بخط الشيخ رضى الله تعالى عنه فى مقدمة تفسير الشعراوى - دار أخبار اليوم .

(٢) رواه البيهقى فى الزهد بإسناد ضعيف ، وراجع كشف الخفاء [١٤٣/١] ، وتخريج أحاديث الإحياء للعراقى [٧/٨] .

الكتاب والسنة والآداب الصالحة فإن خفى عليك أمر فخذ فيه رأى من ترضى دينه وعقله .

واعلم أن على الحق شاهدًا بقبول النفس له ، ألا ترى قول رسول الله ﷺ : « استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون » [1] وقيد الجوارح بأحكام العلم ، وراع همك بمعرفة قرب الله منك ، وقم بين يديه مقام العبد المستجير : تجده رءوفًا رحيما .

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٤/٢٢٨] ، والدارمى [٢/٢٤٥،٢٤٦] ، وأبو يعلى [٣/١٦٠:١٦٢] عن وابصة بن معبد رضى الله تعالى عنه ، ولفظ أحمد : « يا وابصة جئت تسأل عن البر والإثم » . قلت : نعم .
قال : فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال : « استفتِ نفسك واستفتِ قلبك ثلاثًا ، البِرُّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس » .
ولفظ : « أفتاك المفْتُون » هنا ذكره البخارى فى التاريخ الكبير ، وانظر تعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمة الله تعالى عليه على رسالة المسترشدين للإمام المحاسبى [ص:٨٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ينزل العبد من نفسه بقدر منزلته منه »[1] . وذلك على قدر الخشية لله ، والعلم به ، والمعرفة له » .

واعلم أنه من آثر الله آثره ، ومن أطاعه فقد أحبه ، ومن ترك له شيئًا لم يعذبه به ، كما قال رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[2] . فإنك لن تجد فقد شئ تركته لله .

---

(١) جزء من حديث ورد فى فضل ذكر الله عز وجل بنحو هذا اللفظ ، قال المنذرى فى الترغيب [٣/٦٥] ، [٥/٥٣٤] رواه ابن أبى الدنيا ، وأبو يعلى ، والبزار والطبرانى ، والبيهقى وقال : صحيح الإسناد ، وفى أسانيدهم كلهم عمر مولى غُفرة . ضعفه ابن معين والنسائى ، وقال أحمد : ليس به بأس ، لكن أكثر حديثه مراسيل ، وقال ابن سعد : ثقة كثير الحديث ، وبقية أسانيدهم ثقات مشهورون محتج بهم ، والحديث حسن ، والله أعلم .

(٢) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [١/٢٠٠] ، والترمذى [٢٥١٨] ، وقال : حسن صحيح . وصححه الألبانى .

واحْمِ القلب عن سوء الظن بحسن التأويل ، وادفع الحسد بقصر الأمل ، وانفِ الكبر باستبطان العِزِّ ، واترك كل مافِعْلُه يضطرُّك إلى اعتذار ، وجَانِبْ كل حال يَرْمِيك فى التكلف ، وصُنْ دينك بالاقتداء ، واحفظ أمانتك بطلب العلم ، وحَصِّنْ عقلك بآداب أهل الحلم ، واستعدّ بالصبر لكل موطن ، والزم الخلوة بالذكر ، واصحب النعم بالشكر .

واستعن بالله فى كل أمر ، واستَخِرْ الله فى كل حال ، وما أرادك الله له فاترك الاعتراض فيه ، وكل عمل تحب أن تلقى الله به فألزِمْهُ نفسك ، وكل أمر تكرهه لغيرك فاعتزله من أخلاقك . وكل صاحب لا تزداد به خيراً فى كل يوم فانبذ عنك صحبته . وخذ بحظك من العفو والتجاوز .

واعلم أن المؤمن يختبر صدقه فى كل حال ، مُطَّلَبٌ نفسه بالبلوى ، رقيب لله على نفسه . فاثبت على محجة الحق فإنك مراد العون .

واصدق فى الطلب تَرِثْ علم البصائر ، وتَبْدُ لك عيون المعارف ، وتـمَيَّزْ بنفسك على ما يَرِدُ عليك بخالص التوفيق ،

فإنما السَّبْقُ لمن عمل ، والخشية لمن علم ، والتوكل لمن وثق ، والخوف لمن أيقن ، والمزيد لمن شكر [(١)] .

هذا ما أردت أن أتقدم به بين يدى هذا الكتاب الجامع الذى يحتاج إليه كلِ عالم وعابد بل وكل مسلم لما فيه من الآداب الشرعية والحِكم القرآنية .

وهذا الكتاب هو الأول فى سلسلة كتب هادفة بعنوان « الوصايا » لتربية الناشئة والشباب على مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال

فإنما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ   فإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقهم ذهبوا [(٢)] .

---

(١) رسالة المسترشدين للمحاسبى [ص : ١٢:١٥] .

(٢) القائل هو أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدة بعنوان : الشعب والقوم ، وفيها :

هل عَلمْتُم أُمَّةً فى جَهْلِهَا ؟   ظَهَرَتْ فى المجدِ حَسْناءَ الرداءِ؟

بـــاطنُ الأمَّـــةِ من ظاهرِهَا   إنَّمـــا السائلُ من لَونِ الإناءِ

فخُــذُوا العِلمَ عـــلى أعْلامِهِ   واطلُبُوا الحِكْمَةَ عند الحُكَمَاءِ

واقـــرَأُوا تاريخَكُم واحتَفِظُوا   بفَصِيح جَاءَكُم مِنْ فُصَحَـاءِ

واحكُمُوا الدُّنيا بسُلْطَانٍ فَمَا   خُـلِقَت نُضْرَتُهـا للضُّعَفَاءِ =

جمعت مادته من خواطر ودروس فضيلة العارف بالله الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمة الله تعالى عليه ، وتم شرحها والتعليق عليها وتبويبها ، وإضافة ما قصرت عنه المادة من الكتب الأخرى ، كمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، والإمام القرطبى ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلانى ، وغيرهم .

وتخريج أحاديثها والحكم عليها من خلال كتب الجرح والتعديل ، وكتب العلماء التى صنفت الصحيح والضعيف . مع الاستفادة بالكتب المحققة من قبل علماء الحديث وذلك بمعرفة مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة .

جزى الله الجميع خيراً ، وجعل كل ذلك فى ميزان حسناتهم .

والله اسأل حُسن القصد والنية وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره ، وأن يجعله سبحانه عام النفع والبركة ، وأن يجزل

واطلبوا المجدَ على الأرضِ فإنْ	هِيَ ضاقَتْ فاطْلبوه فى السَّمَاء
وإنما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ	فإن هُمُ ذَهبَتْ أخلاقُهُم ذهبوا
وإنَّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ	فإن تَوَلَّتْ مَضُوا فى إثْرِهَا قُدُمَا
فَمَا عَلى المَرْءِ فى الأخلاقِ من حَرَجٍ	إذا رعى صلةً فى اللهِ أوْ رَحما

خير الجزاء لشيخنا الراحل جزاء ما قدم ، وأن يخلفه فى آله رضى اللَّه تعالى عنهم ، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير .

وصلى اللَّهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

عبد اللَّه حجاج

ربيع الأول ١٤٢٢
يـونيـه ٢٠٠١

○○○

الإخلاص فى العمل

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

ومعنى ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ أى : أنه لكل من الإنس والجن درجات مما عملوا ، والدرجات معناها أن الأعمال تتفاوت ، والأعمال مدارها على النية (١) ، والنية محلها القلب ، ولا يطلع على القلوب إلا اللّه تعالى .

ولذلك فإن الرقيب العتيد يسجل الأعمال الظاهرة (٢)، ولكن الإخلاص فى القلب ، لا يعرفه إلا اللّه سبحانه وتعالى ، وهو الذى يُحاسب عليه ، وعليه مناط الأمر كله .

---

(١) أخرج البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

وتكون درجات المؤمنين على حسب التزامهم بأمر الله تعالى ، ليس هذا فقط بل مدى تطوعهم بأعمال هى من جنس ما فرضه الله تعالى عليهم ، زيادة عما فرضه سبحانه عليهم ، فمثلًا نجد أن الله تبارك وتعالى فرض الصلوات الخمس ، ولكن العبد المؤمن يتطوع بصلوات أخرى غير المفروضة كالسنن الرواتب مثلًا ، ويقوم الليل ، وهذا هو مقام الإحسان ، الإحسان بمفهومه المادى ، والإحسان بمفهومه المعنوى ، وهو كما جاء فى الحديث : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كما علمنا الرسول ﷺ فى حديث جبريل المشهور [1] .

والله تعالى فرض الصيام فى رمضان ولكن بعض الناس يتطوع فيصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، أو ثلاثة أيام وسط الشهر العربى ، ومنهم من يصوم يومًا ويفطر يوم ، وكل هذا زيادة على ما فرض الله ، ولكنه من جنس ما فرض سبحانه .

وهناك من الناس من يقف عند ما فرضه الله ، وفى الحديث أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له : لن أزيد على ما

---

(١) أخرجه البخارى [٤٧٧٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، ومسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

فرض اللَّه شيئاً ! فقال الرسول ﷺ : « قد أفلح إن صدق »[1] .

فإذا كان من يؤدى ما فرضه اللَّه قد أفلح ، فالذى يزيد على ما فرض اللَّه شريطة أن يكون من جنس ما فرض اللَّه يكون أشد فلاحاً ، وهكذا تتفاوت الدرجات بين الناس فى أعمالهم ، والدرجات تفيك العلو والدركات تفيد الهبوط .

---

(١) روى أحمد فى المسند [١/١٦٢] عن طلحة بن عبيد اللَّه قال :

جاء أعرابى إلى رسول اللَّه ﷺ قال : يا رسول اللَّه :

ما الإسلام ؟ قال : « خمس صلوات فى يوم وليلة » .

قال : هل على غيرهن ؟

قال : « لا » .

وسأله عن الصوم .

قال : « صيام رمضان » .

قال : هل علىَّ غيره ؟

قال : « لا » .

قال : وذكر الزكاة قال : هل علىَّ غيرها ؟

قال : « لا » .

قال : واللَّه لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن .

فقال رسول اللَّه ﷺ : « قد أفلح إن صدق » .

وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين . وأخرجه بنحوه البخارى [٢٦٧٨] .

التواصى بالحق والخير

كرّم اللَّه أمةَ محمدٍ ﷺ بالفضل الكبير ، وميّزهَا بأن تكوَن مناعتُها دائماً فى ذواتِ أفرادِها ، فإن لم تكنْ فى ذواتِ الأفراد فِفى كلِّ المجموع ؛ ولا يخلُو الزمان من رجلٍ صالحٍ يقول للمنكر لا (١) ، ولذلك لن يأتى رسولٌ بعْد رسُولِ اللهِ ﷺ . فلو كانت هناك طامةٌ سوف تُفْسِدُ المجتمعَ وتُذِيب مناعة كل أفرادِه لكان من اللازِم أن يأتى رسولٌ .

---

(١) روى أبو داود [٤٢٩١] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .
وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٦٠٦] ، ورواه الحاكم فى المستدرك [٤/٥٦٧] .
وأخرج مسلم [١٧٠/١٩٢٠] عن ثوبان رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر اللَّه وهم كذلك » .

ولكنَّ لما كان محمدا ﷺ هو خاتمُ النبيينَ [(١)] ؛ فقد فضل الله سبحانه وتعالى أُمته ﷺ على سائِر الأمم [(٢)] ، فجعل وازعها دائماً فيها ، بحيثُ تكونُ النفسُ لوامةً لكل فرد .

والمجتمعُ نفسُه يحمِي الإنسانَ من الوُقوعِ فى الخطأ ، فيوجد فى المجتمع أُناسٌ يقُومون بالوعظِ والنصحِ ، ويكونُ كلُّ واحدٍ فى المجتمع « موصياً » وكل واحد « موصًى » ولتقرأ قول الحق :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر] .

---

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ .

وأخرج البخارى [٣٣٤٢] ، ومسلم [٢٠/٢٢٨٦] عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مثلى ومثل الأنبياء ؛ كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله . فجعل الناس يُطيفون به ، يقولون : ما رأينا بنياياً أحسن من هذا . إلا هذه اللبنة . فكنت أنا تلك اللبنة » .

(٢) قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ .

ومادة « تفاعل » تشرح لنا معنى « تواصى » مثلها مثل تشارك ، ومعنى ذلك أن كل واحد يقول الوصية ، وكل واحد يتلقاها نصيحة ؛ وذلك لأن النفس البشرية من الأغيار فقد تهيجُ النفسُ على المنهج مرةً ، فتأتى الشرةُ بالشرودِ عن المنهجِ حينئذ يقوم واحدٌ وينصَحُ وينبّهُ ، ويردّها الإنسانُ لصاحبه بعد فترة .

فالتواصِى يقْتضِى أنْ يكُونَ كلُّ واحدٍ موصِياً وكلُّ واحدٍ موصىً ، وكلُّ واحدٍ فى المجتمَع الإيمَانِىّ يفتحُ عينَيهِ بالانتباه لنصحِ الآخَرينَ بالابتعادِ عن الضعفِ ، وبذلك لا يَنْعَدِمُ أنْ يُوجَدَ فى الأمّةِ المحمّديَّةِ مَن يُوصِى بالخيرِ فى موقف وموصٍ فى موقف آخر بحيث لا يتأَبى الإنسانُ على وِصَايَةِ غيره ، ولا عجب فالمؤمن مرآة أخيه »[1] .

---

(١) روى أبو داود [٤٩١٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبو داود [٤١١٠] .

الضرب على يد صاحب المنكر

يريدُ اللَّه أن يَلفِتَنا إلى إنَّنا يَجبُ ألاً نتركَ الفِتَن والمعاصِى حتى يستغْصِىَ حلُّها وتصبحَ كبيرةً ، بل لابدّ أن نُواجِهَها وهِى صغيرةٌ لأَنّهُ فى هذه الحالِة إذا نزَلَ العقابُ فإنهُ لا يُصِيبُ الذين ظَلمُوا فقط ولكنهُ يصيبُ أيضاً مَن تركوا هذه الفِتَنَ تكبُر وتزدادُ ، ولذلك إذا رأيتَ أىّ انْحرافٍ فى أىِّ شىءٍ فاضْربْ على يدِ المنْحرِفِ فإنَّ المعصِيَةَ تكْبُرُ إذا تُرِكَتْ ؛ فالذى تمرس فى الإجرام حتى أصبح زعيم عصابةٍ مثلاً لم يبدأْ المعصيةَ هكذا ، بل إنه رُبما أولَ ما سَرقَ سرقَ مِن أبيه ، أو من أمه ، أو من أخيه ، ولم يُعَاقَبْ ، فسرق مِن الجِيرانِ ، ثم بدأ يسرقُ من الحَىّ ، ثم اجتمَع مع عددٍ من الأشْرارِ وكوَّنَ العصابَةَ ؛ فلوْ أنّهُ ضُرِبَ عَلى يدِه فى الجَرِيمَةِ الصّغيرةِ لمَاَ أصْبَح زَعِيمَ عِصَابَةٍ ، وإياكَ أن تقولَ إنَّ هذا الشىء ما دامَ لم يَمسَّنى فليسَ من شَأْنى لأنَّ الذى اعْتدَى على غيرِك مِنَ السَّهْلِ أن يعتدِىَ عليكَ . وكلُّنا نذكُرُ مثلاً قصة الثور الأبيض والثور

الأحمر عندما جاع الأسدُ تركهُ الثورُ الأحمرُ يأكلُ الثورَ الأبيضَ ما دَام لمْ يتعرضْ لهُ بأذَى ، ثمَّ لما جاعَ الأسدُ انطلقَ ليَفْترسَ الثورَ الأحمرَ الذى قال : « أنا أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثورُ الأبيضَ » لأنِّى لو وقفتُ يومَها معَ الثور الأبيضَ نُواجِهُ الأسَدَ وقاوَمْناهُ لما جَرُؤ على أن يَفتَرس أياً منَّا [1] .

---

(١) يروى أن أمير المؤمنين علياً رضى الله تعالى عنه قال : إنما مثلى ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كنَّ فى أجمةٍ أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شئ لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ولونى على لونكما ، فلو تركتمانى آكله صفتْ لنا الأجمة ، فقالا : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : لونى على لونك ، فدعنى آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ، فقال : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إنى آكلك لا محالة ، فقال : دعنى أُنادى ثلاثاً ، فقال : افعل ، فنادى ألا إنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، ثم قال على رضى الله تعالى عنه : ألا إنى هُنت – ويروى : وهنت – يوم قتل عثمان يرفع بها صوته .

مجمع الأمثال للميدانى : الجزء الأول ، الباب الأول ، فيما أوله همزة .

ولكنَ لماذا يعُمُّ العقاب ؟ لأنَّهم لمْ يضْرِبُوا على يَد صَاحِبِ الفِتْنَةِ الأوُلى وهِيَ لا تزالُ صغيرةً ، فالأبُ مثلاً إذا وجَدَ الابْنَ أو الابنَة إذا أحْضَرَا أشياءً مِنَ الخارِجِ وهو لمْ يُعْطِهِمَا ثَمَنَها فلا بُدَّ أن يْسألَهُمَا مِنْ أينَ لكَ هذا ؟ ولنا فى قصةِ سيدتنا مريمَ وسيدِنا زكريا العبرةُ والعِظَةَ حينَ سألها لمَاَّ وجد عندها رزق لم يأت به وكان عليه السلام كافلها ، والقائم على أمرها ، فقال لها : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

إذن .. يجب أن يُضرب على يَدِ كل معتد ؛ ولذلك فإنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى فى عقوبة القتل - الذى هو قمة المفاسد - جعلَ الدِّيَةَ على العائِلَةِ حتى يَضْرِبُوا على يَدِ مَنْ تُسَوِّلُ لهُ نفسَه قبلَ أن يرتَكِبَ الجرِيمَةَ . والناسُ إذا رأَوْا الظَّالِمَ ولم يضْرِبُوا على يَدِه-يُوشِكُ أن يَعُمَّهم اللَّه تعالى بعقاب مِن عندِهِ ، لأنهُ ما اسْتَشْرَى هذا الظالم فى ظُلْمِهِ إلا لأِنَّ الناسَ سكتُوا على هذا الظُّلمِ . وأنتَ حينَ تَتسَتَّرُ على مَن يفعلُ شراً لِتتَّقِيَ بذلك شَرَّهُ فإنهُ لا بد وأن سيأتى اليومُ الذى يُصيبُكَ مِنه شَرٌ كَبِيرٌ .

ولذلك فسيدُنا أبو بكرٍ الصّـدّيق رضىَ اللَّه عنـه قال : إنّكم تقرأونَ آيَةً فى كتاب اللِه علَى غيْرِ وجْهِها ، تقرأون قولـه سبحانه وتعالى : ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ (١) [المائدة : ١٠٥] ومِن هِدايَتِكم أن تَضْرِبُوا علَى يَدِ صَاحِبِ المنْكَرِ لأنَّ هِدَايَتَهُ سَتنْعَكِسُ عليكم وعلى المجْتمَع كله بالخَيرِ ، ورسولُ اللَّه صلى اللَّه عليهِ وسلَّمَ يُعْطِينا المثَلَ الذى يُعطِينا الصورَةَ كاملةً فيقولُ عليه الصّلاةُ والسلام :

« مثل المدهن فى حدود اللَّه والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى أعلاها ، فكان الذين فى أسفلها يمرون بالماء على الذين فى أعلاها فتأذوا به ، فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا : مالك ؟

---

(١) روى أحمد فى المسند [١/٧] عن أبو بكر رضى اللَّه تعالى عنه قال : إنى سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك اللَّه أن يعمهم بعقابه » . وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين . وأبو داود [٤٣٣٨] ، والترمذى [٢١٦٨] وابن ماجه [٤٠٠٥] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٧٦١] .

قال : تأذيتم بى ولابد لى من الماء ، فإن أخذوا على يديه أَنجوهُ ونَجوا أنفسهم ، وإن تركوه أَهلكوهُ وأَهلكواَ أنفسهم » [1] .

هذا الحديثُ يُقسِّمُ الناسَ إلى قِسْمَين : قائمٌ على حدودِ اللهِ وَوَاقِعٌ فيها ؛ وقد ركِبُوا سَفِينَةً ، والسَّفِينَةُ لها أعْلَى - وهُو السَّطْحُ - وأَسَفَل .

ومعنَى استَهَمُوا على سَفِينَةٍ ، أىْ : لمْ يُوجَد قَوِىٌّ فَرَضَ سلطانه على غيرِهِ لأَنَّهم ما دامُوا استَهَمُوا أى أجْرَوْا قُرْعَةً وهذَا يَحْدُثُ كُلَّما اختَلَفَ الناسُ علَى شىءٍ منهم يُجْرُونَ القُرْعَةَ لحِسْمِ الخِلافِ - فقد حسموا الأمر بينهم .

وكان الذين فى أسفل السَّفِينةِ - إذا أَرادُوا الماءَ - صعَدُوا إلَى السَّطْحِ لِيُلْقُوا الدَّلْوَ ويُحْضِرُوا المَاء ، فقالُوا نحنُ نُؤْذِى المُقِيمينَ على السَّطحِ ونَتْعَبُ صُعُوداً وهُبوطاً فلوُ أَنَّنا خَرقْنَا فى الجُزءِ الخاصّ بنا خَرْقاً نأخذُ مِنْهُ الماءَ لكانَ ذَلكَ مُرِيحاً بالنِّسْبَةِ

---

(١) أخرجه البخارى [٢٦٨٦] عن النعمان بن بشير رضى اللّه تعالى عنه .

لنَا فَلَوْ أَنَّهُم تركُوهم يخرِقُون الخرقَ الذى يُريدُون لهَلكُوا جميعاً ، ولو أَنَّهم أخذوا عَلَى أيْدِيهم لَنجَوْا جمِيعاً .

وليس معنَى هذا أن يقومَ كلُّ إنْسانٍ بِتطْبِيقِ العقُوبَةِ ، فهذا خاص بولىّ الأمر ، ولكن العامة مأمُورونَ أن يستخدموا اللسانَ والقلبَ [1] فى استنكار الفِتَنِ التى تحدثُ .

وكلُّ واحدٍ منَّا مُطَالَبٌ بأنْ يضرِبَ على يدِ مَنْ هُو تحتَ ولاَيَتِه ؛ فالأبُ لهُ زوجتُه وأولادُهُ ، ورئيسُ المصلحةِ لهُ مَن يَعملُون تحتَ رِئاسَتِه والحاكِمُ له العُموميَّةُ .

ولوْ أن كُلَّ واحدٍ منَّا فعل هذا فى نِطَاقِهِ مَا وُجِدَ فَسادٌ ؛ فالمجْتَمعُ مَكَوَّنٌ من أُسَرٍ ، فإذا ما منع ربُّ الأسْرَةِ الفسادَ فيها اتَّجهَ المجتمعُ كلُّه للصَّلاحِ .

---

(١) روى النسائى فى المجتبى [٥٠٠٨/١١١/٨] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « من رأى منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وقال الألبانى : صحيح .

وكلُّ عَمَلٍ لهُ رَئِيسٌ مسؤولٌ عنهُ ، لو مَنعَ الرئيسُ الفسادَ لامتنَعَ الفسَادُ فى المجتمَعِ وَبَقِيَ بعد ذلك الأمرُ العامُ لِلحَاكِم . وفى الحديث : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » [1] .

○○○

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٨٩٣] عن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما .
قال ابن حجر فى الفتح : فإن قيل قوله : « كلكم راع » ليعم جميع الناس فيدخل فيه المرعى أيضاً ، فالجواب : أنه مرعى باعتبار « راع » ، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعياً لجوارحه وحواسه ، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق اللَّه وحق عباده .

فتح البارى [٣٨١/٢] .

إذَا أنْعَمَ اللَّهُ علَى عَبدٍ رزَقَهُ الاسْتِقَامَةَ

لو عقل الناسُ لعرَفُوا أنّ توْرِيثَ القِيَمِ يَفُوقُ توْرِيث المال وذلك لأنَّ القِيَمَ تَجعلُ المالَ خادِماً لِلإنسَانِ لا سَيّداً له .

والاستِقَامةُ الإيمانيَّةُ تُوفِّرُ للإنسَانِ مِن الكرَامَةِ فوقَ ما يتصَوّر أحد . إنّ أحداً منّا لمْ يَرَ استِقَامَةً تُكلِّفُ مالاً إنما الذى يكلِّفُ المالَ هوَ الانحرافُ .

إن الانحرافاتِ هيَ بالوعات للمالِ ، أما الاستقامة فلا تُكَلِّفُ شيئاً وتُوفِّرُ للإنسانِ الخيرَ والمالَ (١) .

---

(١) قال اللَّه تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢] .

قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ الخطاب للنبى ﷺ ولغيره .

وقيل : له والمراد أمته ؛ قاله السدىّ .

وقيل : « استقم » اطلب الإقامة على الدين من اللَّه واسأله ذلك . فتكون السين سين السؤال ، كما تقول : أستغفر اللَّه أطلب الغفران منه . والاستقامة الاستمرار فى جهة =

= واحدة من غير أخذ فى جهة اليمين والشمال ، فاستقم على امتثال أمر اللَّه .

وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد اللَّه الثقفى قال : قلت يا رسول اللَّه قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحد بعدك ! قال : « قل آمنت باللَّه ثم استقم » (١) .

وروى الدارمى أبو محمد فى مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدى قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصنى ! فقال : « نعم ! عليك بتقوى اللَّه والاستقامة ، اتبع ولا تبتدع » (٢) .

﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أى استقم أنت وهم ؛، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته .

قال ابن عباس ما نزل على رسول اللَّه ﷺ آية هى أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : « شيبتنى هود وأخواتها »(٣) .=

---

(١) أخرجه مسلم [٦٢/٣٨] .

(٢) رواه الدارمى [١٣٩/٦٥/١] .

(٣) ذكره ابن سعد فى الطبقات [٤٣٠/١] .

....

○○○

= وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : سمعت أبا عليّ السرى يقول : رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت : يا رسول اللّه ! روى عنك أنك قلت : « شيبتنى هود » .

فقال : « نعم » .

فقلت له : ما الذى شيبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم !

فقال : « لا ولكن قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ » .

تفسير القرطبي [٩/١٠٧] .

التثبتُّ .. والتبينُّ .. وعدم التسرُّع

يقول رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . [النساء : ٩٤] .

إنها آية جمع اللَّه تعالى فيها بينَ كلّ المعانى ، ففيها الحُكمُ وحَيثيتُه والمرادُ منه .

بدأ سبحانه الآية بنداء : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ، والخطابُ بالإيمانِ حيثيةُ الالتزام بالحكم ، إنه سبحانه لم يقُل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ أى : إنه سُبحانهُ يُطَالبُ المؤْمنينَ بِهِ بالتكليف لأنهمُ آمنوا به إلهاً . وما داموا قد آمنوا فعليهم اتباعُ ما يطلبُه اللَّه ؛ إذن .. حيثيّةُ كلّ

حكمٍ من الأحْكَامِ أنَّ المؤمِنَ قد آمنَ بمَنَ أصْدَرَ الحُكْمَ ، فإياكَ أيُّها المؤمنُ أن تقولَ : « ما العلة ؟ » أو « ما الحكمة ؟ » ، وذلك حتى لا تدخل بنفسك فى متاهة ، ونحنْ نؤكد على هذه المسألةِ لأنها تطفُو فى أذهان الناس كثيراً ، ويسألُ البعضُ عن حكمةِ كلِّ شيءٍ ، ولذلك نقولُ : إذا لم تؤمن بالشيْ إلا إذا عرفتْ حِكمتَهُ ، صِرْتَ إلى الحكمةِ لا إلى الآمِرِ بالحكمِ .

ونحنُ نرَى فى حياتِنا الآنَ الذين لا يُؤمنون بإلهٍ ، أو يُؤمنونَ بإلهٍ ولكنّهم أسرفوا على أنفسهم ، وارتكَبُوا الكبائرَ كشهادةِ الزورِ أو أكل الربا .. ولنأخذ مثلاً شارب الخمر عندما يُحلِّلُ الأطباءُ كبِدَه يجدْهُ قد تليَّفَ ، فيقول له الطبيب : إنَّ أىَّ جرْعةِ خَمرٍ زائدة ستُسَبِّبُ الوفاةَ ، هنا يمتنعُ عن شُرْبِ الخمرِ ! لماذا امتنَعَ ؟ لأنهُ عَرفَ الحكمةَ ، فهل كان امتناعُهُ عن الحكْمِ تنفيذاً لأمرِ إلهىّ ؟ لا .. ولكنّ المؤمنَ يمتَنِعُ عن الخمْرِ لله ، لأنّهَا حُرِّمَت بحكمٍ من اللهِ . إنَّ المؤمِنَ يُنَفِّذُ كلَّ الأحكامِ حتى فى الأشياءِ غيرِ الضارةِ فمَن الذى قالَ : إن اللَّه لا يُحرِّمُ إلا الشيَء الضَّارّ .. ؟ إنهُ قد يُحَرِّمُ أمراً لتأديبِ الإنسانِ .

ونضربُ هذا المثلَ - ولله المثلُ الأعلَى - إن الرجل يقولُ لزوجته - إياكِ أن تعطِى ابنَنا بعضاً من الحلوى التى أحضرْتُها ، لأنه لم يفعل كذا وكذا مما أمرته به ، إنهُ يمنع الحلوَى لا لأنها ضارّة ولكنه يريدُ أدبَ الابنِ والتِزَامَه . والحقُّ سبحانه قال : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٦٠]

إن الذى يذهبُ إلى تنفيذ حكمِ اللهِ إنما يذهبُ إليه لأنّ اللهَ قد أمر به ، وليس لأنَّ حكمةَ الحكمِ مفيدةٌ له .

فلوْ ذَهبَ إنسانٌ إلى الحكمِ من أجْلِ فائِدَتهِ أو ضرَرِه فإنَّ الإيمانَ يكونُ ناقِصاً لكنَّ اللهَ يُرِى فى كثيرٍ مِن الأوقات حكمتَهُ فى كثيرٍ من الأحكامِ حتى يَرَي الإنسانُ وجهاً من الوجوهِ اللانهائية لحكمةِ اللهِ .. فيقولُ الإنسانُ « أنا لم أكن أعرف حكمةِ كذا .. ثم بينتْ لِيَ الأحداثُ والتحاليلُ صِدْقَ اللهِ فيما قال » وهذا يُشجعُ الإنسانَ أن يأخذَ أحكامَ اللهِ وهو مسلِّمٌ بها ، فهى دليل على صحة إيمانه .

إن الحق يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ إنها الحيثية .. يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً اسمعْ منِّى ما أريدُه منك .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : الضرب كما نعرفه هو انفعال الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة ، وكلمة ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء : ١٠١] معناها أن الحياة كلها حركةٌ وانفعالٌ .. ولماذا الضرْبُ فى الأرضِ ؟ لأن اللهَ أودَعَ فيها كل أقواتِ الخلْقِ [١] . فحينَ يحبُّونَ أن يُخرِجُوا خيْراتِها فالبشرُ يقومُون بحرْثِها حتى يهيِّجُوها ويَرْموا البُذُورَ وبعدَ ذلك يتعهدوها بالريّ ، ومن بَعدِ ذلك تُخرِجُ الثِّمارُ ، إن هذه عمليةُ يسموها إثارة للأرْض .

إذن .. كل حركة تحتاج إلى قوةٍ ومكافحةٍ . وقوله سبحانه : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل : ٢٠]

وما دامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزمٍ من الإنسان وإلى قوةٍ ولذلك يُقالُ : إن الأرضَ تحبّ من يُهينُها بالعـزقِ والحرثِ ، وكلما اشتدت حركةُ الإنسانِ فى

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت : ١٠] .

الأرضِ كلما أخرجت له خيراً ، والضربُ فى سبيل اللّه هو الجهادُ ، أو لإعدادِ مقوّمات الجهادِ ، والحقُّ سبحانه يقولُ لنا :
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] والإعداد هو أمرٌ يسبقُ المعاركَ .. وكيف يتمّ الإعدادُ ؟ لابد أولّا أن نقومَ بإعدادِ الأجسامِ ، والأجسامُ تحتاجَ إلى مقوماتِ الحيَاة ولابدَّ أن نقومَ بإعدادِ العُدَدِ ، والعُدَدُ تحتاجُ إلى بحثٍ فى عناصِر الأرضِ وبحثٍ فِي اختلافاتِ الصناعاتِ ، وكلُّ عمليات الإعدادِ تتطلّبُ من الإنسان البحثَ والصنعةَ ، ولذلك جاء فى الحديث : « إن اللّه يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه ، يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومنبله » [1] لماذا ؟ لأن هناك إنساناً قام بقطعِ الخشبِ وصقلهِ الذى يتم منه صناعةُ السهمِ وهناكَ إنسانٌ وضَعَ للسهم النَبل .. وهناك من يرمى السهمَ بالقوسِ .

---

(١) جزء من حديث رواه أبو داود [٢٥١٣] عن عقبة بن عامر الجهنى رضى اللّه تعالى عنه . وضعفه الألبانى فى ضعيف أبو داود [٥٤٠] .

إن الحقَّ سبحانه يريُد منا أن نكونَ أقوياء حتى يكونَ الضربُ منا قوياً . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾ هنا يُوجبُ علينا أن نعرف أن الضرب فى سبيل الله لا يكونُ فى ساعةِ الجهاد فقط ، ولكن فى كلِّ أحوالِ الحياة .. لماذا ؟ لأن كّل ما لا يتأتىَ الواجب إلا بِه فهو واجبٌ [(١)] .

إذن .. قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾ [النساء : ٩٤]

معناه هو : لا تأخذوا الأمور بظواهِرها إلا إذا تثبَّتم وتأكّدتم . ولماذا التبين؟ وذلك حتى لا يصيبَ المؤمنون قوماً بظلمٍ .. ولهذا الأمرُ قصة .

فبعضُ آياتِ القرآن تأتى بعد قصّة ما .. لقد كان هناك واحدٌ اسمُه « محلم بن جثامة » وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر الأشجعى » إحَنٌ ، أى شيءٌ من البغضاء ، وبعد ذلك كان « محلم » فى سرية وهى بعض من الجنِد المحدودِ العدَدِ ،

---

(١) قاعدة فقهية مشهورة ، انظر القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام [ص : ٩٦، ٩٧] القاعدة [١٧] .

وصادَف محلم بن جثامة ، عامر الأشجعيَّ وكان « عامر » قد أسلمَ ، فلما ألقىَ السَّلام على « محلم » ومن معه قال « محلم » : إن « عامراً » قد تظاهر بالإسلام ليهرُب مِنِّى فحمل عليه ، وقتل محلمٌ عامراً ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ، سألهُ الرسولُ ﷺ : « ولماذا لم تتبين ؟ ألم يلق إليك بالسّلام ؟ .. كيفَ تقول له إنك تقول : « السلام عليكم » لتنقذ نفسك من القتل ؟

وقال الرواة : فلما مات « محلم » ودفن لفظته الأرض مرة بعد أخرى .

وكلما كانت تأتى آيةٌ مخالفةٌ لنواميسِ الدنيا المفهومة للناس .. كان رسول اللّه ﷺ يحرصُ ألا يُفتَنَ الناسُ فى هذه الآيات فيصحح لهم ويرشدهم إلى ما فيه صالحهم .

ومثالُ ذلك : عندما ماتَ إبراهيمُ بن النبىّ ﷺ ، حدث أن انكسفت الشمسُ ، فقال الناسُ : انكسفتِ الشمسُ من أجلِ ابنِ رسول اللّه ﷺ ، ولكن لأنّ المسألةَ مسألةُ عقائدِ ، فقد قال الرسولُ ﷺ : « إن الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ اللّه

لا يخسِفانِ لحياةِ أحدٍ أو موتِه » [1] لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول اللّه وابنِهِ إبراهيم ولكن الرسولَ يريدُ أن يُصححَ للناسِ مفاهيمَهم وعقائِدَهم .

وعندما لفظتُ الأرضُ « محلماً » وحتى لا يفتَتِن أحدٌ أو يقول : إن هناك كفاراً كثيرين قد دُفِنُوا ولم يُلْفَظُوا .

لم يسكت الرسولَ صلى اللّه عليه وسلم على ذلك حتى لا تحدُثَ هزة ولو بَسيطةٌ فى جزئيةٍ ، ويقول الناس إن أبا جهل فى حالٍ لا بأسَ به وكذلك الوليدُ بن المغيرة فهما لم تلفظهما الأرض كما لفظت : محلم .

لكنّ الرسولَ أوقف مثلَ هذه الأمور قبل أن تساور أحدًا ، وقبل أن يستغلها الشيطان لزعزعة الإيمان فى نفوس المؤمنين ، فقال : « أما الأرضُ فقد قبلت من هو شرٌ من محلم ولكنّ اللهَ أرادَ أن يريكم آية فى قتل المؤمن » وفيه نزل قول اللّه تعالى :

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٠٤٤] ، ومسلم [١/٩٠١] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [1] .

[النساء : ٩٤] .

---

(١) ذكر القصة ابن الأثير فى أسد الغابة [٥/٧١] عن القعقاع بن عبد اللَّه بن أبى حدرد ، عن أبيه قال : بعثنا رسول اللَّه ﷺ إلى إضم ، فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ، ومحلم بن جثامة ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مَرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعى ، على بعير له ، فلما مَرَّ علينا سلم علينا بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه ، وحَمَل عليه مُحلم بن جثامة فقتله لشىء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتاعه . فلما قدمنا على رسول اللَّه ﷺ أخبرناه الخبر ، فنزل فينا القرآن : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء : ٩٤] الآية .

وذكر الطبرى أن محلم بن جثامة توفى فى حياة النبى ﷺ فدفنوه فلفظته الأرض مَرَّة بعد أخرى ، فأمر به فألقِى بين جبلين وجعل عليه حجارة ، وقال رسول اللَّه ﷺ : « إن الأرض لتقبل من هو شر منه ، ولكن اللَّه أراد أن يُريَكم آية فى قتل المؤمن »[1] . =

---

(١) أخرجه الطبرى [٥/١٤٠، ١٤٢] وانظر تفسير ابن كثير [٢/٣٣٨] ، والسيوطى فى الدر المنثور [٢/٢٠٠] .

وعلى ذكر ذلك جاءتنى رسالةٌ يقول فيها صاحبُها : كنتُ أسمعُ إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا : « فتثبتوا » بدلا من « تبينوا » فى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة الحجرات :

﴿ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ . [الحجرات : ٦] .

ولكن السامع الذى أرسل الخطاب سمعها « فتثبتوا » .. نقول له : إن هذه قراءة من القراءات ، والمعانى دائماً ملتقية ، فـ « تبين » معناها « اطلب البيانَ لتَتَثَبَّتَ » .

ولنا أن نعرفَ أن القرآنَ قد نزلَ على سبعةِ أحرُف وكتابةُ القرآنِ كانت بغيرِ نقطٍ وبغير شكل . وهذا حالٌ غير حالنا ، حيث نجد الحروف قد تم تشكيلُها بالفتحةِ والضمةِ والكسرةِ

= قال أبو عمر : وقد قيل : إن هذا ليس محلم بن جثامة ، فإن محلمًا نزل حمص بأخَرَة ، ومات بها فى أيام ابن الزبير .
والاختلاف فى المراد بهذه الآية : كثيرٌ جدًا ، قيل : نزلت فى المقداد ، وقيل : أُسامة ، وقيل : فى محلم . وقيل : فى غالب الليثى . وقيل : نزلت فى سرية ، ولم يُسَمِّ قائل هذا أحَدًا . وقيل غيرهم ، وكان قتله خطأ .

ونحنُ نعرفُ أن هُناك حروفاً مُشتبهةَ الصورةِ فالـ « با » تتشابهُ مع « التا » و « اليا » وكذلك « النون » و«التاء » و« الثاء » ولم تكنْ هذه النقطُ موجودةً ، ولم تكن هذه العلاماتُ موجودةً قبل الحجاج بن يوسف الثقفىّ ، وكانوا يقرأون بِمَلكَةِ العربيّة .. ولذلك إن لم يُصِبْ نصّ الكلمةِ فهو لا يبعدُ عن معناها . ومثال ذلك « فتبينوا » إنها مكونة من الـ « فاء » ولم يحدثْ فيها خلاف وكذلك « التاء » وبقيةُ الحروف هى الباء والياء والنون .. وكل واحدة من هذه الأحرف تصلحُ أن نجعلَها « تثبتوا » بوضع النقاط أو نجعلَها «تبينُوا» . إنهُ خلافٌ فى النَّقطِ .. ولو حذفْنا النقطَ لقرأناها على أكثرِ مِن صورةٍ .. إما على المعنى الصحيح أو المعنى القريب من المعنى الصحيح .

ولذلك عندما جاءوا لواحدٍ لم يكنْ يحفظُ القرآنَ وأحضرُوا لهُ مصحفاً ليقرأ ما فيه فقالَ : « صنعة اللّه ومن أحسن من اللّه صنعة » ولم يحدثْ خلافٌ فى « الصاد »

ولكن حدثَ خلافَ فى معنى الآية ، فـ « الباء » صالحة لتكون « با » أو « نا » وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عيناً » لذلك فالآية فى قراءة حفص : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ ﴾ [البقرة : ١٣٨] وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد قراءة القرآن على طريقة حفص قال : « صنعة اللَّه ومن أحسن من اللَّه صنعة » إن المعنى واحد ، فهو وإن لم يقع عليها فقد وقع قريباً منها لماذا ؟ لأن الملكةَ عربيةٌ وعندما ينطِقُ سيأتى بالسياق الذى يأتى بالمعنى .

وكذلك من قرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] هذه هى قراءة حفص ، ولكن الذى لم يحفظْ القرآنَ قبل تنقيطِ حرُوفه قرأهَا : « قال عذابى أصيب به من أساءُ » صحيح أن كلمة « أساء » فيها ملحظ آخر للمعنى ؛ لكن القراءة الأخرى لم تبعُد بالمعنى وعلى ذلك فكلمةُ « فتبينُوا » تُقْرَأُ مرةً « فتثبتُوا » ومرةً تُقْرَأ فتبينُوا فى الآيتين .. سواء فى هذه الآية أو فى الآية التى يقول

فيها الحق : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ٦] .

والتبين يقتضى الذكاء والفطنة حتى يتعرفَ الإنسانُ من إيمانِ مَن ألقَى إليه السلام ، هل يصلِّى ؟ هل ، هل .. والحقُّ يقولُ : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء : ٩٤] ، إن الذى يكفى المؤمن شر الظن إذا ما قال أحدٌ : السلام عليكم ، هنا يجب أن يفطَنَ المسلمُ إلى أن أمر القلوب لا يعلمه إلا اللَّه تعالى وألا يأخذَ إنساناً بالشبهات .

ولذلك نجدُ النبىَّ يحزِمُ الأمرَ مع أسامةَ بن زيد الذى قتل واحداً بعد أن أعلَن هذا الواحدُ إسلامَهُ بقوله : لا إله إلا اللَّه ، وظن أسامة أنه قالها خوفا من السلاح ، فقالَ له النبىّ ﷺ « أفلا شققت عن قلبه » [1] إن أسامةَ رضى اللَّه تعالى عنه قال للرسول ﷺ : لقد قال الشهادة ليحمِىَ نفسَهُ من الموتِ ، فكانت الإجابةُ : هل شققَت عن قلبِهِ فعرفت أن قوله : « لا إله إلا الله » كان خوفًا من القتل ؟!

---

(١) جزء من حديث آخرجه مسلم [١٥٨/٩٦] عن أسامة بن زيد رضى اللّه تعالى عنهما .

إن لقول : « لا إله إلا الله » حُرمةً ، فساعة يقولها الإنسان تعصم دمه ، فلا يجوز قتله ، لقد قال أهل العلم : إن نجاةَ ألفِ كافرٍ خيرٌ من أخذِ مؤمنٍ واحدٍ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾ [النساء : ٩٤] .

يعني : أعلن إيمانه حتى ولو كان مستسلماً تحت بريق السيف ، إنه ليس من حق أحد أن يُلقِي الاتهامَ بعدم الإيمان على مَن جاء مسلماً أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمةُ : ﴿ عَرَضَ ﴾ إذا ما سمِعْناها ، فلنعْلَم أن معناها اللغوى : هى كل ما يَعرِضُ ويزولُ وليس له دوامٌ أو استقرار أو ثباتٌ ، ونحن - البشر - أَعراضٌ ؛ لأنه ليس لنا دوامٌ أبداً .

ويُقالُ إن الإنسانَ عَرَضٌ إذا ما قاس الواحدُ منا نفسه بالنسبةِ للكوْن ، لأن الكونَ لا يتمّ بناؤهُ على الإنسان بل إنَّ الكونَ كله الذى نراه هو عرض لأنه سيأتى عليه يوم ويزول .

إذن .. فالعرض بالنسبة لكل شىء بحاجته ، والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة عرضًا وكذلك المرض ، وكذلك السمنة

والنحافة ، ولون البشرة إذا ما تعرض للشمس يتغير من أبيض إلى أسمر . وكذلك الغنى والفقر ، وكل شيء يمكن أن يذهب في الإنسان ويأتي فهو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهراً بالنسبة له ، فإذا قسنا الإنسان إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ، فعندما نقيس الإنسان ببناية يكون عرضاً ، لأن البناية ستظل والإنسان سيذهب .

وعندما نقيس الدنيا نجدها عرضاً ، يقول تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع المقاتل فيما يملكه الذى يلقى السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا هنا هو عزة نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إِحَنٌ أو بغضاء ، وعندما نسمع كلمة : ﴿ عَرَضَ ﴾ وهذا العرض فى الحياة الدنيا ، نفهم أن ذلك عرض فيما لا قيمة له ، ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شيء كان عنده ، وينسى هذا الإنسان أنه هو نفسه معرض للموت فيقول :

نفسي التي تَمِلكُ الأشياء ذاهبةٌ فكيفِ آسَى على شيءٍ لها ذَهَبَا

وكذلك : ﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، نحن نفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق « علوا » وعلى ذلك يكون مقابل « الدنيا » هو « العليا » .

ومن يرغبُ في : ﴿ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فعليه أن يملك الذكاء والحكمة والفطنة ، فلا يجب أن يأخذ العرض ممن سيقتله ، ولماذا لا يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا ممن خلقها ؟

إن العاقل لو أراد الحياة الدنيا فليأخُذْها من خالق الحياة كلِّها ومالكها ، ولا يأخُذها من إنسانٍ مثله .. لأن الإنسان لا يملك الحياة الدنيا بدليل أنه معرَّضٌ للقتلِ .

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التي خلقها فهو سبحانه يعلم تعلقها بالأشياء التي تنفعها أو تعطيها اللذة حتى لو كانت مؤقتة ، مثل ذلك : الإنسان يكون سعيداً إذا ما تناول غداءه ، ويكون سعيداً أكثر

إذا امتلك الغذاء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة عندما يمتلك قوته لمدة شهر أو عام ، ويكون أكثر إشراقاً بالسعادة عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، لنفسه وكذلك أولاده من بعده .

إذن .. فالإنسان يحب الحياة لنفسه ويحب امتداد حياته فى غيره ، ولذلك نجد الإنسان يحزن عندما لا يكون عنده أولاد ، لأنه يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك يتمنى أن تكون حياته موصولة فى ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فالإنسان يسعد أكثر لأن ذكره سيكون فى جيلين ، هنا نقول لمثل هذا الإنسان : لتفرض إنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك فى الآخرة ؟ ليس أمامك إلا أن تعمل صالحاً ، وتنشىء وَلَدَك على الصلاح حتى يدعو لك [(١)] .

---

(١) أخرج مسلم [١٦٣١/١٤] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، وأبو داود [٢٨٨٠] ، والترمذى [١٣٧٦] ، والنسائى [٢٥١/٦] ، وأحمد فى المسند [٣٧٢/٢] .

ولذلك يكشف الحق سبحانه وتعالى النفس البشرية المتحولة التى تهفو إلى المغانم أمام صاحبها فيأتى بالحكم الذى يظهر الخواطر التى تجول فى النفس البشرية ساعة سماع الحكم .

الحق سبحانه لما قضى أن يحرم دخول المشركين البيت الحرام وقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ ﴾ [التوبة : ٢٨] . فمعلوم أن المشركين حين يدخلون البيت الحرام ، يدخلون بتجاراتهم وأموالهم .

إذن .. فهم يذهبون إلى موسم اقتصادى يبيعون ويشترون البضائع ويعيش أهل الحرم من ريعها طوال العام ، وعندما يحرم الحق دخول المشركين إلى البيت الحرام يعلم الحق أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون المكاسب والبضائع والتجارة والمغانم التى سيحرمون منها فيقولون فى أنفسهم : وكيف سنعيش ؟ ولأن الآمر هو الخالق سبحانه الذى يعلم السر وأخفى فقد طمأنهم على حياتهم ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [التوبة : ٢٨] .

ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق ! ونحن هذه الأيام نمر بمثل هذا الكلام ، فعندما يقول المحبون لدين الله الغيورون على شرعه : « يجب أن نمنع الخمر ! فيقول الآخرون : وماذا نفعل فى السياحة التى تأتى لنا بأموال كثيرة تنعش اقتصاد الدولة ؟ هنا نقول لهم ما قاله الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [التوبة : ٢٨] . وقد يرزقنا الله عندما نعف عن الخمر وغيرها من المحرمات بأشياء تفوق الحسبان ، كآبار بترول جديدة أو ثروات معدنية أكثر قيمة من البترول .. إننا لن نُعلم الله - معاذ الله - ماذا يصنع لنا ، إنه كفيل بنا ما دمنا نأخذ بأسبابه ونمتنع عن المحرمات . إن الذين يظنون أن الخمر هى عماد السياحة مخطئون .. ولنتدبر قول خالقنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ .

إن قول الحق سبحانه : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] هذا القول ينطبق على أهل كل عصر

وكل زمان وتكون الإجابة على هذا القول فيما جاء من بعد ذلك ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ ﴾ [النساء : ٩٤] ولذلك أنا أحب أن يتفكر الناس دائما فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ ﴾ [النساء : ٩٤] لعل آية من هذه الآيات تمس قلوب الرعاة أو من بيدهم الأمر فيلتفتوا إلى شرع الله الذى يرزقنا جميعاً . كذلك أُحب أن يتدبر الناس قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ٩٤]

إنها دعوة لأن يأخذ المسلمون العبرة من تاريخهم القريب ويتعاونوا فيما بينهم ، ويكونوا يداً على من سواهم .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ لقد كان المسلمون الأوائل قلة مُستَذَلّة تدارى إيمانها .. فهل سلط الله عليهم أحداً يجترىء على التفتيش فى النوايا ؟!

إذن .. فمثلما حدث لكم قدروا لإخوانكم فـ ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . إن الله مَنَّ عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة ، وصار المسلم يمشى عزيز الجانب (١) ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شيء .

قول الحق : ﴿ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ هنا بعد أن قالها فى صدر الآية ، الأولى مقصود بها : ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر فى المسألة الاقتصادية ، إذن .. ﴿ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾

---

(١) عن عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد » .
جزء من حديث طويل رواه أحمد فى المسند [٢٥٧/٤] .
وعنه رضى الله تعالى عنه أنه قال : كنت عند رسول الله ﷺ فجاء رجلان يشكو أحدهما العيلة ، ويشكو الآخر قطع السبيل ، فقال رسول الله ﷺ : « أما قطع السبيل فلا يأتى عليك إلا قليل حتى تخرج العير من الحيرة إلى مكة بغير خفير ... » . الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه [٧٣٧٤] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

جاءت أولاً تمهيداً للحيثية ، وها هى تأتى مرة ثانية نتيجة للحيثية .

إن الحق سبحانه وتعالى حين يشرع لا يشرع عن خلاء .. ولكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية [(1)] ولا يعتقد أحد أنه سبحانه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا فى نظام الحياة ، إنه سبحانه خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا فى رحاب المنهج تأتيه الدنيا وهى راغمة [(2)] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ إنه سبحانه خبير بما نعمل ، كأن الحق يقول إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه شيئاً غير حقيقى ، لأن الذى تطلب منه الجزاء هو الرقيب عليك والحسيب ، يعلم سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها .

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ . [الملك : ١٤] .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ .

فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يسلم ولكن لأن بينه وبين الآخر إحنًا وبغضاء .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء : ١٠١] هو تأكيد على مهمة الضرب فى الأرض ، وهو سبحانه لم يقل : « إن ضربتم » لأن أسلوب « إن » يكون للشك عادة ، فيقال للتلميذ : « إن ذاكرت تنجح » ، ولكن لو قلنا : « إذا ذاكرت فسوف تنجح » فـ : « إذا » تعبر عن التأكيد ، و : « إن » حرف ، ولكن « إذا » اسم للشرط يدل على الزمن ، وأى فعل من الأفعال عناصره الحدث وزمن الحدث ، فإذا كان الحدث فى زمن قبل أن تتكلم ، فهو حدث ماضٍ ، وإذا كان الحدث يجرى ساعة الكلام فهو مضارع ، وإذا كان الحدث سيجرى من بعد ذلك فهو مستقبل ، و « إن » لا تأتى وحدها بشىء من عناصر الحدث ، لأنها حرف إلا فى قول « إن تفعل » أى : الفعل .. ولكن « إذا » جاءت بعنصر الزمن لأنها ظرف لما يستقبل منه وهى قرينة للتحقيق وكأن الحق سبحانه يقول : إن الإيمان الذى أعلنتموه واستقر فى قلوبكم يحتاج منكم إلى

الضرب فى الأرض .. وأنا أمهد لكم أن تعرفوا أن الضرب فى الأرض هو أمر بالنسبة للإيمان يجب أن يتحقق .

إن الانسياح بالدعوة الإيمانية أمر واجب ولذلك قلنا إن من شرف أمة سيدنا محمد ﷺ أنها حملت امتداد الرسالة بعد رسول الله ﷺ فلم يأت من بعد رسول الله أنبياء ، ولذلك عندما يقول رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » [1] لماذا ؟ لأن العلماء ورثة الأنبياء [2] ، فهم يحملون المنهج ، والله قد تكفل بحفظ المنهج : ﴿ إِنَّا نَحْنُ

---

(١) أخرجه مسلم [١٧٠/١٩٢٠] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه .

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود [٣٦٤١] ، وابن ماجه [٢٢٣] ، والدارمى [٣٤٢/١١٠/١] وابن حبان فى صحيحه [٨٨] ، وأحمد فى المسند [١٩٦/٥] وصححه الألبانى فى صحيح أبو داود . كلهم عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ، والعبارة أوردها البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم ضمن عنوان باب العلم قبل القول والعمل .

نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨] فكما أن الرسول سيشهد أنه بلَّغ مَن عاصره منهج اللَّه ودعوته ، وكذلك مَن عاصره من الصحابه رضى اللَّه تعالى عنهم بلغوا التابعين من بعدهم ، وهكذا ، حتى وصلنا الأمر جلياً نقياً ، فسوف يكون مطلوباً منا أن نبلغ دعوة رسول اللَّه ﷺ للناس [1] ، وبهذا أمرنا

---

(١) روى أبو داود [٣٦٦٠] عن زيد بن ثابت رضى اللَّه تعالى عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « نضر اللَّه امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى بلغه ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » . والترمذى [٢٢٥٦] ، وابن ماجه [٢٣٠] ، وأحمد فى المسند [١٨٣/٥] ، وابن حبان فى صحيحه [٦٧] ، [٦٨٠] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبو داود . كلهم عن زيد بن ثابت رضى اللَّه تعالى عنه . وأخرج البخارى [٣٤٦١] عن عبد اللَّه بن عمرو قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « بلِّغوا عنى ولو آية ، وحدِّثوا عن =

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تتواصل الأجيال ونعيش الرسالة وكأننا فى عصرها الأول .

○○○

= بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » ، والترمذى [٢٦٦٩] ، وأحمد فى المسند [٢/٢٠٢] .

النهى عن السوء وسيلة النجاة

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف : ١٦٥] [1] قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴾ أى : ما ذكرهم المؤمنون به وعظا .

---

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة . وفرقة نهت عن ذلك وأنكرتْ واعتزلتهم . وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمُنْكِرَة : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى : لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من اللّه ، فلا فائدة فى نهيكم إياهم ؟ قالت لهم المنكِرَة ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع ، كأنه على تقدير : هذا معذرة . =

= وقرأ آخرون بالنصب ، أى : نفعل ذلك « معذرة إلى ربكم » أى : فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يقولون : ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى اللَّه تائبين ، فإذا تابوا تاب اللَّه عليهم ورحمهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ ﴾ أى : فلما أبى الفاعلون المنكَرَ قبولَ النصيحة ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أى : ارتكبوا المعصية ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحًا فيُمْدَحُوا ، ولا ارتكبوا عظيمًا فيُذَمُّوا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين ، وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها أيلة ، فحرم اللَّه عليهم الحيتان يوم سبتهم ، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شُرَّعًا فى ساحل البحر ، فإذا مضى يومُ السبت =

= لم يقدروا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء اللَّه ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها وقد حرمها اللّه عليكم يوم سبتكم ؟! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوّاً ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النُّهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وكانوا أشد غضبًا للّه من الطائفة الأخرى ، فقالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب اللّه نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ والذين قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ، وأهلك اللّه أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

وقال عكرمة عن ابن عباس فى الآية ، قال : ما أدرى أنجا الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أم لا ؟ قال : فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ، فكسانى حلةً . وقد قدمنا فى سورة البقرة من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية . وللّه الحمد .

القول الثانى : أن الساكتين كانوا مع الهالكين . =

وقوله تعالى : ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ يدل على أن النجاة هنا للفرقة الواعظة ثم جاء العذاب للذين ظلموا وعصوا ولكن ما هو مصير الفرقة الثالثة التى قالت : ما لنا ومالهم ؟

إن هذه الفئة التى يئست من طول الوعظ وعدم الاستجابة هم أيضاً من الواعظين لأنهم حين يقولون إن اللّٰه مهلك هؤلاء الظالمين ومعذّبُهم يكونُ هذا وعظاً وتخويفاً لكل الحاضرين مما ينتظرهم من العذاب ، وسوء المصير نتيجة لظلمهم .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ وهم الفئة التى قامت بالدعوة ويئست

= وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا . و ﴿ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فيه قراءات كثيرة . ومعناه فى قول مجاهد : الشديد . وفى رواية : أليم . وقال قتادة : موجع . والكل متقارب . واللّٰه أعلم .

عمدة التفسير [٥/٢٣٧:٢٣٨] .

من استجابة العاصين لربهم ، أما الذين ظلموا فأخذهم الله ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أى : عذاب شديد ، لأن كلمة الباء والهمزة والسين تدل على الشدة ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] أى : شدة .

وقوله تعالى ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ : تعنى أن المسألة لم تكن تعنتا من الله سبحانه وتعالى ولكنها كانت بسبب ظلمهم وفسقهم ومخالفتهم لمنهج الله تعالى .

○○○

النهى عن تزكية النفس

يقول الحق عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٤٩] والتزكية كما نعرفها هى التطهير والنماء ومنها أخذت كلمة « الزكاة » والتطهير يزيل الأقذار ، والنماء يُربى المادة فتنمو .

إذن .. فالتزكية تعنى عدم وجود أقذار . ووجود النماء يأتى بعد التطهير ، فلا نأتى لقذر ونطالب بنموه لأنه إن نما فهو ينمو بقذارته .

إذن .. لابد له إذا أراد أن ينمو من الطهر . لذلك فإن درء المفسدة مقدمٌ دائماً على جلب المصلحة (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ ﴾ ماذا قالوا تزكية لأنفسهم ؟

لقد قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾ [المائدة : ١٨] وقالو : ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ ﴾ [البقرة : ١١١]

---

(١) قاعدة فقهية مشهورة .

إنهم يقومون بتزكية أنفسهم والإنسان منهى أن يُزكّيَ نفسه .

والتزكية تقتضى تطهير النفس من العيب وعملاء الإنسان لنفسه نماءً ونظافة فماذا إن كانت التزكية حقاً ، أممنوع أن يزكى الإنسان نفسه ؟

إن التزكية التى قاموا بها لأنفسهم كأهل كتاب كانت تزكيةً باطلة فليس حقيقى أن لله أبناء .. تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً ، وليس حقيقياً أن الجنة لن يدخلها إلا هم .

إذن .. الممنوع هو أن يزكى الإنسان نفسه بالباطل لكن إذا كانت التزكية بحق وتطلب فى وقت من الأوقات التى لا تحتمل التجربة . مثال ذلك عندما تركب جماعة زورقاً ويكون القائد الذى يجدف ، أى : يمسك الشراع ، متوسط الموهبة ثم قامت عاصفة شديدة ، لا يقوى متوسط الموهبة على القيادة معها ، فإذا كان هناك إنسان يجيد فن قيادة الزوارق أثناء العواصف عليه أن يتقدم ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً منك ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه .. هذه تزكية للنفس وهى مطلوبة لأن الوقت ليس وقت تجربة ،

ثم هو يزكى نفسه بحق ، كما إن العمل الذى هو مقبل عليه سيفضحه إن لم تستقر المسائل على حسن قيادة .

إذن .. هناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق ومن أوضح أمثلة التزكية بحق حينما زكى سيدنا يوسف عليه السلام نفسه لعزيز مصر ، وقال له : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] لأن الوقت ليس وقت تجربة وكذلك سيدنا محمد ﷺ عند قسمته لغنائم حُنَيْن حينما سأله أحد المنافقين أن يعدل فقال ﷺ : « ومن يعدل إذا لم أكن أعدل » [1] .

○○○

(١) أخرج مسلم [١٠٦٣/١٤٢] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما ، قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفَهُ من حنين ، وفى ثوب بلال فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها ، يعطى الناس ، فقال : يا محمد اعدل . قال : « ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ... » . وأخرج البخارى [٣٦١٠] عن أبى سعيد الخدرى بنحوه ، وكذلك مسلم [١٠٦٤/١٤٣] .

الرحمة واللين فى النُّصح

قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] مجىء « ما » فى قول الحق : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ يدل على أنها أمر لا يمكن أن يدرك كنهه ، فدخل تحت الإبهام بـ « ما » لأن الشىء إذا كان لطيفاً دقيقاً فإن الإدراك يقصر عنه .

هذه الآية نزلت عقب أحداث حدثت فى غزوة أُحد منها :

الحدث الأول : أن الرسول ﷺ رأى ألا يخرج إلى القوم بل يظل فى المدينة فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال فى بَدْرٍ أن يخرج إليهم فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم ولبس « لأْمَته » فلما أحسوا بأنهم أشاروا على رسول الله بما يخالفُ ما كان قد بدا منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إنْ رأيت ألا تَخرُجَ

فلا تخرجْ فقال ﷺ : « ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل »(١) فما دام قد استعد للحرب فقد انتهت المسألة .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة [٨٠٧/٣] .

وروى البيهقى فى السنن الكبرى [١٣٢٨٢] ، ودلائل النبوة [٢٠٤/٣، ٢٠٥] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما قال :

تنفل رسول اللَّه ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر . قال ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما : وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أُحد وذلك أن رسول اللَّه ﷺ لما جاءه المشركون يوم أُحد كان رأيه أن يقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً : تخرج بنا يا رسول اللَّه إليهم نقاتلهم بأُحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فما زالوا به حتى لبس أداته ثم ندموا ، وقالوا : يا رسول اللَّه أقم فالرأى رأيك ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « ما ينبغى لنبى أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم اللَّه بينه وبين عدوه » .

قال : وكان مما قال لهم رسول اللَّه ﷺ يومئذ قبل أن يلبس الأداة : « إنى رأيت أنى فى درع حصينة فأولتها المدينة وإنى مردف كبشاً فأولته كبش الكتيبة ، ورأيت أن سيفى ذا الفقار فل فأولته فلاً فيكم ، ورأيت بقراً تذبح فبقر واللَّه خير =

الحدث الثاني : تخلف عبد الله ابن أُبيّ رأس المنافقين بثلث الجيش .

الحدث الثالث : مخالفة الرماةُ عن أمره ﷺ وتركوا مواقعهم رغم أنه حذّرهم من ذلك ، وقال : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا أماكنكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم

فبقر والله خير » .

رواه الحاكم فى المستدرك [١٢٩/٢] وصححه ، ووافقه الذهبى .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : استشار رسول الله ﷺ الناس يوم أحد فقال : إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى فى درع حصينة وكأن بقرا تُنحر وتباع ففسرت الدرع : المدينة ، والبقر : بقراً والله خير ، فلو قاتلتموهم فى السكك فرماهم النساء من فوق الحيطان ، قالوا : فيدخلون علينا المدينة ؟ ما دخلت علينا قط ولكن نخرج إليهم . قال : فشأنكم إذا قال ثم ندموا . قالوا رددنا على رسول الله ﷺ رأيه ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا يا رسول الله : رأيك . فقال : « ما كان لنبى أن يلبس لأمته ثم يخلعها حتى يقاتل » .

السنن الكبرى للبيهقى [٧٦٤٧/٣٨٩/٤] .

وأوطأناهم ، فلا تبرحوا أماكنكم » ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم [1] .

الحدث الرابع : فرارهم حينما قيل : قُتل رسول اللّه ﷺ .

الحدث الخامس : أنه حين كان يدعوهم صلى اللّه عليه وسلم فروا لا يلوون على شيء .

كل هذه الأحداث كادت تترك فى نفسه ﷺ آثاراً فنزل قول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ معنى ذلك أن اللّه يقول لرسوله أنا طبعتك على رحمة تتسع لكل هذه الهفوات ، والرحمة منى ، وما دامت الرحمة موهوبة منى فلا بد أنى جعلت فيها طاقة تتحملٍ كل مخالفة من أمتك ومن أتباعك ولا تظن يا محمد إنك أرسلت إلى ملائكة إنما أُرسلت إلى بشر ، والبشر خطّاءون ، إن البشر من أهل الأغيار فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة وأنت بذاتك طلبت منى كثيراً لأمتك ، فكلما هموا بك بسوء أقول لك أطبق عليهم الأخشبين فتقول : « بل أرجو أن يخرج من

---

(١) أخرجه البخارى [٢٨٧٤] وأحمد فى المسند [٢٩٣/٤] من حديث البراء بن عازب رضى اللّه تعالى عنه .

أصلابهم من يعبد اللَّه لا يشرك به شيئًا » (١) وكلما يأتى أمر فأنت يا محمد رحيم بهم وأنا أطلب منك بالرحمة التى أودعتها فى قلبك ، بهذه الرحمة لنت لهم يا محمد ، وبهذه الرحمة التفوا حولك ، التفوا حولك لأدبك الجم ، لتواضعك الوفير ، لحُسن خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو (٢) ، هذا هو الخلق العالى وكل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل هذه الهفوات وليسعها خلقك ، وليسعها حلمك لأنك فى دور التربية والتأديب .

والتربية والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادرة تبدر منهم وإلا ما كنت مربياً ومؤدباً ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٢٣١] ، ومسلم [١١١/١٧٩٥] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

(٢) تأسياً بالنبى ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود [٤٧٩٤] عن أنس رضى اللَّه عنه ؛ وفيه : « .. وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده ، حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده » . وحسنه الألبانى .

كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]
لماذا ؟ لأنك يا محمد تخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية ، والذى يُخرِج واحداً عما ألف لا يصح أن يجمَع عليه إخراجه عما اعتاد والأسلوب الخشن الفظ ، لأنه فى حاجة إلى التودد والرحمة ، لا تجمع يا محمد عليهم الأمرين .

ولذلك يقولون فى الذى ينصح إنساناً يقولون له : إن النصح ثقيل لأن النصح معناه تجريم الفعل فى المنصوح ، فتقول للمنصوح وأنت فى موقف الناصح : لا تفعل هذا الأمر ، وهذا معناه أن ذلك الفعل ردىء ، وما دمت وأنت ناصح لآخر تجرم له فعلاً فلا تجمع عليه أمرين : الأول : أنك تقبح فعله ، والثانى : أنك تخرجه مما ألف بأسلوب يكرهه .

ونحن نستعمل هذا الأسلوب فى ذوات أنفسنا حين نجد مرضاً يحتاج إلى العلاج بالدواء المر نغلف العلاج المر بطبقة حلوة الطعم بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم وحتى ينزل إلى المعدة فلا تحس بهذه المرارة ، لأن الاحساس كله فى الفم بالنسبة للمواد المتناولة من خلاله لذلك نغلف الدواء بطبقة

ناعمة الملمس وحلوة الطعم غالباً حتى يمر من منطقة الفم والبلعوم التى فيها الإحساس بالتذوق إلى المعدة حيث لا إحساس بالمرارة .. . فإذا كنا نفعل ذلك فى الأمور المادية فلا بد أن نفعل مثل ذلك فى الأمور المعنوية ، لماذا ؟ لأن النصح ثقيل ، فلا تجعله جدلاً ، ولا ترسله جبلاً .

إن الحقائق مُرَّة فاستعيروا لها خِفة البيان ، إن خفة البيان هى التى تؤدى الغرض بدون استثارة وبدون إثارة وبلفظ يحمل على التقبل ، إن المعنى الذى تريد أن توصِّله واحد ولكن المهم هو اختيار الأسلوب .. مثال ذلك ، أن رجلاً رأى رؤيا تتلخص فى أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء لمفسر الأحلام وقص عليه ما رأى فقال له المفسر : إن أهلَك جميعاً يموتون ، لقد ألقى فى وجهه بقدر هائل من الألم البالغ باختيار هذه الكلمات التى تعبر بخشونة عن معنىً ما .

ثم ذهب نفس الرجل إلى مفسرِ أحلامٍ آخر ، فقال المفسرُ : ستكون أطولَ أهل بيتك عمراً . لقد اختار المفسرالثانى أسلوباً راقياً فى نقل الحقيقة الواحدة فما دام صاحب الرؤيا هو أطولُ

أهل بيته عمراً فمعنى ذلك أنهم سيموتون قبله . إنه معنى واحد ولكن بأسلوبين مختلفين .

وقول الله تبارك و تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . [آل عمران : ١٥٩] .

إذن .. فبالرحمة لنت لهم يا رسول الله ، وبلين القلب اتبعوك وَأَلِفُوك وأحبوك ، وعندما نقف عند كلمة : ﴿ فَظًّا ﴾ فإننا نجد أن الفظ هو ماء الكرش فالإبل مجهزة بقدرة الله سبحانه وتعالى أن تشربَ من الماء ما تحتاج إليه لمدة طويلة ، وتخزنَ من هذا الماء فى كرشها ، حتى عندما تعطش ولا تجد ماءً فإنها تأخذُ من هذا الماء المخزون ليرويَها ، ونحن نعرفُ أنه فى إحدى الغزوات ذبح المقاتلون بعضاً من الإبل ليأخذوا الماء من كرشها .

ومياه الكرش هذه عادة ما تكون : غير جيدة الطعم ، وآسنة قليلاً ، وشرب مثل هذا النوع من الماء يولد غضاضة فى النفس لذلك سمى بالفظاظة لخشونة هذا النوع من المياه ، وأطلق العرب كلمة فظاظة على خشونة القول ، وغلظ القلب هو الذى تنشأ منه خشونة الألفاظ .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] إن هذا القول مقدمة توضح للرسول الكريم ﷺ ما أراه الله له وكأن الحق يقول : إنها الرحمة التى طُبعت عليها مِنِّى وظهر أثرُ ذلك فى إقبالهم عليك وحبِّهم لك ، لأنك لو كنتَ على نقيضِ ذلك لما وجدتَ أحداً حولك .. إذن فالشواهدُ تثبتُ أن هذه الرحمةَ وهذا اللينَ طبعَهُ الحقُّ تبارك وتعالى فى خلْقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفطره عليه (١) .

○○○

(١) ولقد امتدحه رب العزة سبحانه فى القرآن العظيم فقال :
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .
ووصفه سبحانه وتعالى بأنه : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .
[التوبة : ١٢٨] .

الصحبة بالمعروف لغير المؤمن

بعض المستشرقين حاولوا جاهدين أن يعثُروا على ثغرةٍ ينفذُون منها ليفرّقُوا بين المسلمين ودينهم ، وأن يروجوا لزعمهم الباطل بأن هناك تعارضاً بين آيات الكتاب الكريم . وارتدى بعضهم مسُوح العلم المحايد ، وامتلأت قلوبُهم بسوءِ النية ، وغابَ عن عقولِهم حسنُ الإدراك فقالوا : إن بعض الآيات القرآنية تتعارضُ ، والسبب الذى يجعل المسلمين يغفلون عن ذلك التعارض بزعمهم هو إنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة ، ولولا هذه القداسة لأمكنهم اكتشافُ التعارضِ فى آياتِ القرآن !!

هؤلاء المستشرقون لما قرأوا الآية الكريمة التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

تَعۡمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٥] حاولوا بسوء القصد والنية أن يوهموا أذنابهم أن هناك تعارضاً بينها وبين قول الحق سبحانه : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ . [المجادلة : ٢٢] .

إن بعض المستشرقين يحاولون أن يُروجوا لفكرة التعارض بين قول الحق : ﴿ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ [لقمان : ١٥] من سورة لقمان وبين قوله : ﴿ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ ﴾ [المجادلة : ٢٢] طعنًا فى هذا الدين وحسدًا من عند أنفسهم .

إن الفهم الصحيح لقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي

ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٥] هو أن الله تعالى يأمر الابن أن يصاحب والديه بالمعروف ، ولا يطيعهما فى دعوتهما له بالشرك بالله ، بل يأمره أن يتبع طريق التوحيد والإخلاص ، وأن مرجعهم جميعاً هو وهما إلى الله تعالى بما فعلوا من خير أو شر ، وأن الله سبحانه هو الذى سيجزى كل إنسان جزاءَ عملِهِ .

ومعلوم أن الصحبة بالمعروف سواء مع الوالدين أو غيرهما أمرٌ مختلفٌ عن الودِّ بالقلب ؛ فالمعروف فعل الجوارح ، أما الود فهو فعل القلب .

إن الصحبةَ بالمعروف أمرٌ يصنعُه الإنسانُ مع من يحبُّ ومع مَن لا يحب ، أما الودّ فلا يصنعه الإنسانُ إلا مع من يُحِب ، واقرأ قول الحق : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] . هذه الآية الكريمة توضح أن القوم المؤمنين بالله واليوم الآخر ليس بينهم وبين من يعادى الله ورسوله ويصد عن دينه مودة قلبية ، ولا موالاة ، ولا نصرة ، حتى ولو كانوا من آبائهم أو إخوانهم أو أبنائهم أو أقاربهم ، وهذا لا يمنع من معاملتهم بالمعروف ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، فهذا شىء ، والنصرة فى الدين والمولاة فى الله تعالى شىء آخر (١) .

إن المؤمنين لا يوالون من حادّ الله ورسوله ؛ لأن الحق ثبَّتَ قلوبَهم على الإيمان وأيدَّهم بقوةٍ منه وجعل لهم جزاء ذلك جناتٍ لا ينقطعُ فيها النعيمُ عنهم لأنهم أحبُّوا اللهَ فأحبَّهم الله ، وهكذا نفهمُ الفرقَ بين « الصحبة بالمعروف » وبين « الود » .

---

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

ثم إن الصحبة بالمعروف أمرٌ لا يتطلبُ الحب ، ولكن يتطلب المعايشة ، وإن المؤمن بسلوكه مع مَن حوله قدوةٌ تنيرُ قلوبَ الضالين إلى الهداية . فإن آمَن الضالُّ فللمؤمن ثوابَ إيمانه ، وإن لم يؤمنْ الضالُّ فللمؤمن الثوابُ أيضًا لأنه عايشَ الضالَّ دون أن يتأثر بدعوةِ الضلال ، أو أن يحيد عن منهج الحق سبحانه حتى ولو جاءته هذه الدعوة من أبيه أو أمه أو أقاربه . إن المؤمن لا يساوم على إيمانه ، لذا فلا مودة بينه وبين من عادى اللَّه ورسوله ، وأوضح الأمثلة على ذلك يوم بدر حينما قال عبد الرحمن بن أبى بكر رضى اللَّه تعالى عنهما لأبيه بعد أن أسلم : « لقد رأيتك يا أبى يوم بدرٍ ولكنِّى لويتُ عُنقِى عنَك ، فقال له سيدنا أبو بكر رضى اللَّه تعالى عنه : واللهِ لو رأيتُك لقتلتُك [1] .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [٣/٤٧٥] ولفظه : قال عبد الرحمن ابن أبى بكر لأبى بكر رضى اللَّه تعالى عنهما : قد رأيتك يوم أُحد فصفحت عنك ، فقال أبو بكر : لكنى لو رأيتك لم أصفح عنك .

والذين يبحثون فى فلسفة الدين يقولون إن الاثنين على حَقٍّ لأنَّ عبد الرحمن قارن بين أبيه والأصنام ، أما سيدُنا أبو بكر فقارنَ بين ابنه وربه ، فوجد أن اللّٰه تعالى أعز عليه من ابنه ، والاثنان منطقيان .

وكذلك حينما رأى سيدنا مصعب بن عُمير أخاه أسيراً فى يد أحد الصحابة فقال للصحابى : اشدد على أسيرك فأمه غنية وستفديه بمال كثير .

○○○

الرضا بالقضاء يرفعه

لا يُرفع قضاء من اللّه على خلقه إلا بعد أن يستسلِمَ الخلقُ للقضاء ، والذين يُطيلون أمدَ القضاء على أنفسهم هم الذين لا يرضوْن به ، ولا يوجد إنسانٍ أُجرى عليه قضاء كمرضٍ مثلا فرضِيَ به واعتبرَ ذلك ابتلاءً من اللّه تعالى ، فصبر لذلك واحتسب ، إلا ورفع اللّه تعالى عنه المرضَ ، بل وجزاه خير الجزاء على صبره واحتسابه .. كيف ؟

إن الإنسانَ بالصحة يكونُ مع نعمة اللّه ، ولكنهُ بالمرض يكونُ مع اللهِ تعالى . فقد روى أبو هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال :

قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى .

قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعُده ؟ أما علمت أنك لوْ عُدته لوجدتنى عنده ؟ » [1] .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٧٣٩٩] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

مَنْ إذن يجرُؤُ على الزُّهدِ فى معيَّة اللَّه ؟ إن المريض عندما يعرف أنه فى مرضه الذى يتأوه منه هو فى معية اللَّه لاستحيا أن يقول : « آه » ولرغب إلى ربه ومولاه وحمده ، وسأله العفو والعافية .

ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء ، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لرفع القضاء .

إذن .. لا يرفع قضاء حتى تكون نفس من ابتُلِىَ به راضية ، وما دام عدم الرضا موجوداً فالناسُ هم الذين يطيلون على أنفسهم أمَد القضاء لأنهم لا يرضون به ، فإذا قال لك إنسانٌ إنه راضٍ بقضاءِ اللَّه وأن القضاء لم يُرفعْ عنه ، فاعلم أنه يقولُ ذلك بلسَانِه ولا يرضَى قلبُه بذلك وجاء فى الحديث : « ليس لابن آدم إلا ما قُدر له »[1] .

○○○

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٦٩/٤٣] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

ثمرة الرضا بقضاء الله

قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

ما هو الضر أولا ؟ إن الضر هو ما يصيب الإنسان ويخرجه عن استقامة حياته وحاله. فالإنسان عندما يعيش بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه صحيح البدن ، لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر فى الذهاب إلى الطبيب .

إذن .. فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هى رتابة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفته إلى شىء . ويلفت الحق أصحاب النعم إلى شكره سبحانه ، فعندما تسير فى الشارع وترى إنساناً فقد ساقه فأنت تقول « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه » [(١)] لأنك سليم الساقين وهكذا تعرف أنك

---

(١) روى ابن ماجه [٣٨٩٢] والترمذى [٣٤٣١] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من =

لا تدرك نعمة اللَّه فى بعضٍ منك إلا إذا رأيتَها مفقودةً فى سواك .. وهكذا تعلم أن من الآلام والآفات منبهات للنعم.

وأيضاً نجد أن منغصات الحياة قد تصيب الإنسان حين يتصوَّر أنه لم يأخذْ حظه من نعِمَ اللَّه ، فيقول لحظتها : يا مفرج الكروب يا رب ، ولذلك حين نجد الإنسان يقول : « يا رب » ، نعرف أنه يفزع إلى اللَّه ، ولذلك قالها اللَّه عن الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] وذلك يعنى أن الإنسان إذا ما أصابه مكروه فهو يلجأ إلى اللَّه ، ولا يملُّ دعاء اللَّه على كل حال سواء أكان الإنسان مضطجعاً ، أو قاعداً ، أو قائماً . وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن الدعاء ويعيش رتابة النعمة ، وينسى المنعم سبحانه ، وكأنه لم يدْعُ اللَّه

= فَجِئَه صاحب بلاء فقال : الحمد للَّه الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا ، عوفى من ذلك البلاء كائنا ما كان » ، وقال الألبانى : صحيح .

سبحانه إلى كشف ما به من ضر ، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم ، إن النفس - أو الشيطان - تزين للعاصى بعد ما يكشف اللَّه ما به من ضر ، أن الذى كشف الضر هو مهارة الطبيب الذى لجأ إليه ! غافلًا عن أن مهارة الطبيب هى نعمة من نعم اللَّه تعالى ؛ أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه اللَّه من علم أو مال ، غافلًا عن أن اللَّه سبحانه هو واهب كل شىء ، كما فعل قارون الذى ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكدِّه غافلاً أن الحق هو مُسبِّب كل الأسباب ، ولو كان ذلك كذلك لاستطاع قارون أن يحافظ على ذلك المال بعلمه كما ادعى [1] .

إذن .. لولا الضر ما علمنا العافية ، فالضر يُلفت الإنسانَ إلى نِعَمِ الحقِّ سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا وإذا ما رضىَ الإنسانُ وصبرَ فإن اللَّه يرفعُ عنه الضرَّ ، بل ويثيبه عليه .

---

(١) إشارة إلى قول اللَّه تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا نماذج على مثل هذا الأمِر فها هو سيّدنا إبراهيم عليه السلام يتلقّى الأمرَ بذبح ابنه الوحيد إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، يأتيه هذا الأمر فى رؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق [1] .. إنّ على إبراهيم أن يذبَح ابنه بنفسِه .

وهذا ارتقاء فى الابتلاءِ ولم يلتمسْ إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهربَ من ابتلاءِ اللّه له ، لم يقلْ إنها مجرد رؤيا وليست وحياً لقد جاءه الأمرُ بأشق تكليف وهو ذبحُ الابن ، ونرى عظمةَ النبوةِ فى استقبال أوامر الحقّ فيتقبل خليل الرحمن الأمر عن طيب نفس ورضا بالقضاء ، فيلهمه اللّهُ أن يُشرِكَ ابنَه إسماعيلِ فى استقبالِ الثوابِ بالرّضا بالقضاءِ ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] امتلأ قلبُ إسماعيل بالرضا

---

(١) روى الطبرى فى التفسير عن قتاده فى تأويل قوله تعالى :
﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ قال : رؤيا الأنبياء حق ، إذا رأوا فى المنام شيئاً فعلوه .

بقضاء اللّه ولم ينشغلْ بالحقد على أبيه ولم يقاومْ ولم يدخلْ في معركة جدلية ، بل قال قول المؤمن الواثق بربه الراضي بقضائه المستسلم لأمره : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ .

لقد أخذ عليه السلام أمر اللّه بقبولٍ ورضاً ، ولذلك يقولُ الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧ ﴾ [الصافات] .

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء اللّه ، واستسلم كل منهما للأمر عن طيب خاطر ورضى ، أسلمَ إبراهيم كفاعلٍ ، وأسلم إسماعيلُ كمنفَعِلٍ ، ورأى اللّه تعالى صدق كلٍ منهما في استقبِال أمِر اللّه ، وهنا نادى الحقُّ إبراهيمَ عليه السلام : لقد استجبْتَ أنت وإسماعيل إلى القضاءِ ، وحسبكمُا هذا الامتثالُ ولذلك يجيءُ إليك وإلى ابنِك التخفيفُ وجاءَ النداء بذبحٍ عظيم القدرِ جعله اللّه منسكاً من مناسك ذرية إبراهيم والذين آمنوا إلى يوم الدين ، ليس هذا فقط ، بل ومكافأة عظيمة ، قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] لقد رفع اللّهُ عن إبراهيم القضاءَ وأعطاهُ الخير وهو ولدٌ آخر.

إذن .. فنحن الذين نطيل على أنفسنا أمدَ القضاءِ بعدَم قبولنا له ، لكن لو رضى الإنسان بقضاء الله واستقبَلهُ بالحمد ، لرفع عنه البلاء ، وجزاه الله عن صبره ورضاه خير الجزاء من مُجْرِيهِ قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧]

إن الله يعلم أن أياً من عباده لا يتحمل قوة الحق فى الضر ولذلك يكون الضر فى هذه الحالة مجرد مس ، وكذلك الخير إنما ينالُ الإنسان مسَّ الخيرِ فقط فكلُّ الخيرِ مُدَّخَرٌ فى الآخرة . لأن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه .

إن الإنسان فى الدنيا مهما ارتقى فى الابتكار والاختراع فهو لن يصلَ إلى كلِّ الخيرِ الذى يُوجَدُ فى الآخرة ؛ ذلك أن خيرَ الدنيا يحتاجُ إلى تحضيرٍ وجهدٍ من البشرِ ، أما الخيرُ فى الآخرةِ فهو على قدر المُعْطِى الأعظَم وهو الله سبحانه وتعالى .

إذن .. فكلُّ خيرٍ فى الدنيا هو مجردُ مسّ خيرٍ لأن الخير الذى يناسب جمال وكمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير وهو مُدَّخَر للآخرةِ .وعلينا أن نعلم أن كاشفَ الضرّ هو اللهِ لا أحد غيره فالمريضُ لا يشفَى بمجردِ الذهابِ إلى الطبيبِ لكنَّ

الطبيبَ يعالِجَ بالمهارَة الموهوبةِ له من اللّهِ والذى يُشْفِى هو اللّهُ .

قال تعالى حكاية عن الخليل إبراهيم أنه قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ، إن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء وخلق الدواء وجعل الأطباء مجرد جسور إلى الدواء ومن ثم إلى الشفاء لينعم على بعض عباده ببعض من المواهب التى خلقها اللّه فى كونه ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاءَ معه لا بِه ويعترفُ أن اللّهَ أكرمهُ بأن جعلَ الشفاءَ يأتى على ميعادٍ من علاجه .

إذن .. فالحق هو الكاشف الحقيقى للضر وهو القادر على أن يعطيك الخير [1] .

---

(١) أخرج مسلم [٦٩/٢٢٠٤] عن جابر رضى اللّه تعالى عنه قال ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لكل داء دواء فإذا أُصِيبَ دواءُ الداءِ برأ بإذن اللّه عز وجل » .

وروى أبو داود [٣٨٥٥] عن أسامة بن شريك رضى اللّه تعالى عنه قال ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « تداووا فإن اللّه عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد الهرم » . وصححه الألبانى .

التكامل والتعاضد
سُنة اللّٰه تعالى فى خلقه

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]
واللفتة هنا هى أن اللّٰه لا يريدنا أن نكون متساوين فى المواهب ولكنه يريدنا أن نكون متكاملين فيها لماذا ؟ لأنه إذا كان الناس كلهم صورة مكررة لفسدت الأرض فلو أننا جميعاً أطباء أو قضاة أو مهندسون أو فلاحون ، ما استقام الكون ولكنه رفع بعضنا فوق بعض ، ومعنى ذلك أن بعضنا مرفوع وبعضنا مرفُوعٌ عليه . أى : أن كل واحد فينا مرفوعٌ من جهة ومرفوعٌ عليه من جهة أخرى حتى يتكاتف الناس لتكتمل الحياة ، والحياة لا تكتمل تفضلةً ولكنها لابد أن تكتمل بالمصالح المرتبطة بعضها بالبعض تفضل حاجة ، فلو أننا جميعاً مثلاً من خريجى الجامعة فلن نجد إنساناً يقبل أن ينظف الشارع ، أو يحمل القمامة

أو يقوم بإصلاح المجارى ولكن كون المسألة مرتبطةً ببعضها البعض فإن هذه المسائل تأتى اضطراراً ، وهذه هى حكمة الخالق سبحانه للكونْ ، ولكننا لا نفهمها فى كثير من الأحيان !

ولذلك فإننا مثلاً نقول على الذى لم يكمل إلا تعليمه الابتدائى ، أو الذى لم يأخذ حظاً من التعليم ، أنه فشل فى حياته ولم نلتفت إلى أن هناك مهمةً فى الكون لا تحتاج إلا لحامل الابتدائية ، فهذا الإنسان الذى وصل إلى التعليم الابتدائى مُعَدٌّ لمهمة فى الكون لا يقومُ بها غيرُه ؛ والإنسان إذا عضَّهُ الجوعُ أو حاجة عياله فإنه يعمل أى عمل فإذا رضِىَ بقضاء اللَّه تعالى وقدره فتحَ اللَّه تعالى عليه فوصل رزقه من عمله إلى أضعاف رزق ذلك الذى تخرج فى الجامعة ، ليس هذا فقط بل يبارك اللَّه تعالى له فيه ، ولذلك أقول دائماً « قيمة كل امرىء ما يُحسنه » وما دام يحسن عمله يكون إنساناً ناجحاً فى الكون ولو لم يُرضِ هذا النجاحُ بعضَ الناسِ . وهنا تظهر الحكمةُ فى أن بعضنا مرفوع على بعض ، فكل إنسان إذا نظرت إليه وجدتَه مرفوعاً فى شىء ومرفوعاً عليه فى شىء آخر

الشيء الذى هو مرفوع فيه يستفيد منه الكون كله ، والشيء الذى هو مرفوع عليه يستفيد هو من غيره ، وهكذا تتكامل المواهب وتعطى الكون الكمال والجمال الذى يجعلنا جميعاً نستفيد من كل المواهب فينا ، فالمهندس الناجحُ المرفوعُ على الناس فى فنِّ الهندسة يبنى لنا جميعاً العمارات فنستفيد كلنا منه ، من يملك ومن يسكن ، وإذا احتاج هذا المهندس إلى بدلةٍ أنيقةٍ يلبسُها فإنهُ يذهبُ إلى ذلك الإنسانِ الذى رفعهَ اللهَ فى فنِّ التفصيل فيستفيدُ من موهبته فى هذا الفن ليحصلَ هو وكل الناس على ملابسَ أنيقة ، فإذا احتجنا إلى أثاث فإننا جميعاً نذهب إلى ذلك الإنسان الذى رفعه اللَّه فى فن النجارة وصناعة الأثاث .

وهكذا شاءت حكمة الخالق سبحانه أن يكون كلٌّ منا مرفوعاً فى شيء ومرفوعاً عليه فى شيء آخر ، حتى يستفيد الكون كله من مواهب البشر جميعاً ويصبح كل واحد منا قادراً على أن يستفيد من كل المواهب التى خلقها اللَّه فى الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

إذن .. فالمسألة فيها ابتلاء واختبار ، والاختبار هنا ليس اختبار علم فالله سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء ، ولكنه اختبار لنكون شهداء على أنفسنا تماماً كالاختبارات التى تتم فى الدنيا ، فالامتحانات التى تعقد فى كل أنحاء الدنيا ليس هدفها أن يتعلم الأستاذ من التلميذ ، فالأستاذ هو الذى أعطى تلاميذه العلم فلماذا يختبرهم ؟ إنه يختبرهم حتى يكون كل واحد منهم شهيداً على نفسه ، لأنه لو لم تُعقد هذه الامتحانات لادّعى كل تلميذ سواء كان فاشلاً أو فالحاً أنه يستحق النجاح مع مرتبة الشرف .

إذن .. الحكمة من الامتحانات أن يكون كل إنسان شهيداً على نفسه فإذا ادعى أنه يعلم وأنه ذاكر يأتون له بورقة إجابته فلا يستطيع المجادلة لأنه فى هذه الحالة تكون أمامه القرائن والأدلة التى تجعله عاجزاً عن أن يجادل بالباطل ، ولذلك فإن ابتلاء الله لنا يكون اختبار إقرار علينا ، وليس اختبار علم الله

ليقول الله سبحانه وتعالى للإنسان لقد خلقتك وأعطيتك هذه الموهبة وميزتك بها عن كل خلقى لتتكاملوا وتتعاضدوا ، فارضَ بما قسمته لك تكن أغنى الناس [1] .

○○○

(١) روى الترمذى [٢٣٠٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله ﷺ : « من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن ؟ فقال أبو هريرة : فقلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدى فعد خمساً ، وقال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب » . وقال الألبانى : حسن .

التوكل على الله وحده

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [الرعد : ٣٠] الإنسان لا يسلم نفسه إلا لمن يثق في أنه أمين عليه ثم إنه لا يكتفي بأن يكون أميناً فقط ! فقد يكون أميناً وضعيفاً لا يقدر على الحماية ، فلابد أن يكون أميناً وقوياً ، فإذا كان الإنسان يسلم قيادة نفسه إلى واحد يرى أنه أحكم منه، يعني : أنه شهد لهذا الواحد بأنه أمين عليه ، وأحكم منه ، وأقدر على تنفيذ مطلوبه ؛ وإلا لو كان هذا الإنسان قوياً بذاته لما وكَّلَ أحداً .

والرسول ﷺ في دعوته لصناديد قريش ومواجهته لهم ، لقى منهم عنتًا شديدًا وخصومة فاجرة ، فاتهموه ﷺ بأشياء هم أول من يعلم أنها ليست فيه ، فاحتكم إلى الله وفوض أمره إليه ، وحول الموقف كله بينهم وبينه إلى الله تعالى ، وقال : ﴿ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وهذه شهادة منه ﷺ

بأن الله تبارك وتعالى هو القوى ، الأمين ، والحكيم ، ولم يقل توكلت عليه لماذا ؟ لأن هناك فرقا بين : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، وتوكلت عليه .

توكلت عليه من الممكن أن نعطف أيضاً فنقول : وعلى فلان وعلى فلان إنما : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعنى توكلت عليه وحده لا أحد غيره ، ولذلك لا نقول : نعبدك يا الله ، ولكننا نقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعنى : نحصر العبادة فيه سبحانه فلا تتعداه إلى غيره ، ولو أنها أُخرت لجاز أن يعطف عليها .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يعى لا توجد مشاكسة ، هو إله واحد نأخذ الأمر منه وحده ، ونتوكل عليه وحده ، ولذلك عندما تكون هناك إدارة وفيها رئيس وهذا الرئيس أعطى هذا صلاحية وآخر صلاحية فتقول أنا ليس لى إلا رئيس واحد لا آخذ أوامر إلا منه ، وهذا معناه أننى لا آخذ أوامرى من أحد غير رئيس العمل فهذا المثل يفسر معنى الآية الكريمة : بأنه هو إله واحد لا إله غيره آخذ منه أوامرى وحده ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [الرعد : ٣٠] .

الاحتساب

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أى : إن انصرفوا عنك ورفضوا الاستماع إلى منهج الله فإياك أن تعتقد أن الله ينصرك بمن اتبعك من المؤمنين ، بل اعلم أنه يكفيك أن الله معك ، فإن أعرضوا عنك فقل أمام الناس جميعاً : ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ أى : يكفينى الله .

الحق سبحانه وتعالى لم يطلب من رسوله ﷺ أن يقول هذا فى نفسه ، ولكنه طلب منه أن يعلنها أمامهم جميعاً ، لماذا ؟ ليؤكد للدنيا كلها أنه لو تخلى الخلق جميعاً عن محمد عليه الصلاة والسلام فإن رب محمد قادر على أن ينصره دون مؤازرة من الخلق ، والإعلان هنا دليل قدرة الحق سبحانه وتعالى ، هذه القدرة التى تجعل محمدا عليه الصلاة والسلام يقولها بأعلى صوته : ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ لأنه لا إله إلا الله ، ولا يوجد فى كونه سبحانه قوة ولا قدرة تعلو قوته وقدرته تبارك وتعالى .

إذن .. فلا إله إلا اللّه أثبتت الألوهية للّه ، ونفت الألوهية عن غير اللّه ، فالتوحيد إيجاب وسلب ، إيجاب فى أن اللّه وحده هو الإله ، وسلب فى أنه لا إله غيره ، تماماً كما بين قطبى الكهرباء إذا لم يلتق السالب والموجب لا يسرى التيار ، ونحن لا بد لنا أن نسلب الألوهية عن غير اللّه ثم نثبتها للّه تبارك وتعالى .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [التوبة : ١٢٩] هو نفى للألوهية عن غَير اللّه وإثباتها للّه سبحانه وتعالى ، لماذا ؟ لأن الناس ثلاثة أقسام :

قسم : كافر يُنكر وجود اللّه سبحانه وتعالى .

وقسم : مُشرك ينسب الألوهية للّه ولغير اللّه سبحانه وتعالى .

وقسم : مؤمن بأنه لا إله إلا اللّه .

إذن .. فالكفار يُنكرون وجود الألوهية ، والمشركون يثبتونها للّه ولغير اللّه ، والمؤمنون يؤكدون أنه لا إله إلا اللّه ، فكأنك حين تقول : لا إله إلا هو ، تكون قد أثبتَّ الألوهية للّه وحده ، وأثبت أنه لا شريك له ، ونفيت كل أنواع الكفر والشرك باللّه تعالى .

معية اللَّه ثمرة من ثمرات الاحتساب والتوكل

من ثمرات قول المسلم : ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] ، معية اللَّه تعالى ، ومعية اللَّه جل جلاله تتطلب مرحلتين :

المرحلة الأولى : أن نأخذ بالأسباب التى خلقها اللَّه فى الكون وأرشد خلقه إلى الأخذ بها .

المرحلة الثانية : إذا خذلتك الأسباب فاتجه إلى اللَّه مُسبِّبِ الأسباب ، ولذلك قالوا : إذا احتاج الناس إلى الماء فعليهم أن يذهبوا إلى البئر أولا ، فإذا وجدوها قد جفت ذهبوا إلى بئر أعمق منها ، فإذا وجدوها أيضاً قد جفت رفعوا أيديهم إلى السماء طالبين من اللَّه المطر [١] .

---

(١) قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ .

وعن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه تعالى عنه قال : أتت =

= النبى ﷺ بواكٍ ، فقال : « اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا ، مريئًا مريعًا [1] ، نافعًا غير ضارٍّ ، عاجلًا غير آجل »[2] .فأطبقت عليهم السماء .

وعن عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها قالت : شكا الناس إلى رسول اللّٰه ﷺ قحوط المطر ، فأمر بمِنْبَرٍ ، فوُضِعَ له فى المصلى ، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه ، فخرج رسول اللّٰه ﷺ حين بدا حاجب الشمس ، فقعد على المنبر ، فكبر ، وحمد اللّٰه عز وجل ، ثم قال : « إنكم شَكَوْتُم جدب دياركم ، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم ، وقد أمركم اللّٰه سبحانه وتعالى أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم » .

ثم قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ لا إله إلا اللّٰه ، يفعل ما يُريد ، اللهم أنت اللّٰه لا إله إلا أنت الغنى ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغًا إلى حين » . =

---

(١) أى : هنيئًا خصبًا .

(٢) رواه أبو داود [١١٦٩] ، والحاكم فى المستدرك [٣٢٧/١] ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وقال الألبانى : صحيح .

ولذلك لابد أولاً أن تستنفذ أسباب اللَّه الممدودة إليك ، فلا تردَّ يد اللَّه الممدودة إليك بأسبابه وتتجه إلى المسبِّب إلا فى

= ثم رفع يديه ، فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه ، ثم حوَّل إلى الناس ظهره ، وقلب - أو حَوَّلَ - رداءه وهو رافع يديهُ ثم أقبل على الناس ، فنزل ، فصلى ركعتين ، فأنشأ اللَّه عز وجل سحابة فرعدت ، وبرقت ، ثم أمطرت بإذن اللَّه تعالى ، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى سُرعَتَهُم إلى الكَنِّ ؛ ضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال : « أشهد أن اللَّه على كل شىء قدير ، وأنى عبد اللَّه ورسوله »[1] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو رضى اللَّه تعالى عنه قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا استسقى قال : « اللهم اسقِ عبادك وبهائمك ، وانشر رحمتك وأحيى بلدك الميت »[2] .

---

(١) رواه أبو داود [١١٧٣] ، وقال هذا حديث غريب ، إسناده جيد . والحاكم فى المستدرك [١/٣٢٨] وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وقال الألبانى : حسن .

(٢) رواه أبو داود [١١٧٦] . وقال الألبانى : حسن .

حالة فشل الأسباب واضطرارك ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] .

والمضطر هو الذى استنفذ أسباب اللَّه فى الأرضى ، ولم يبق له إلا التوجه إلى اللَّه مباشرة ، ضارعًا إليه ، مستنجدًا به ، لذلك تجد بعض الناس يتعجل ويقول إنه دعا اللَّه ولم يجبه ، نقول له : إنك لم تستنفذ الأسباب . ويظن الناس أن الأسباب وحدها تعطى ، وهذا أحد أهم أسباب تأخر الإجابة ، لذلك .. لابد لكل إنسان أن يكون اللَّه فى باله فى كل عمل ، ويعلم أنه لولا توفيقه له ما رشد ، ولتعطلت الأسباب ، ولم تجبه ولابد أن يكون قائماً بأمره مخلصاً له الدين ، ولا يعتقد أن الأسباب تعطى بذاتها بل بقدرة اللَّه ، ولذلك قد يأخذ الإنسان بالأسباب كلها ثم يأتى ما يُفسِد له النتيجة مثل : آفة زراعية أو عاصفة ، أو أمطار غزيرة ، فتمنع الأسباب من العطاء ، ابتلاء من اللَّه تعالى ، وليلفتك إلى أن الأسباب وحدها لا تعطى ، وحتى لا تغتر وتقول : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] .

فأنت إذن .. مع أسباب اللّه تعالى أولاً تأخذ بها ، فإذا ما استنفدتها لجأت إلى المسبب سبحانه مباشرة ، وإياك أن تدعو اللّه مثلًا إن كنت تلميذاً فى مدرسة أن يوفقك للإجابة الصحيحة ، وأنت لا تذاكر ولا تفتح كتاباً ، ولكن ذاكر وادع بالنجاح وبذلك يكون لك أكثر من رصيد فى الحياة ، فإذا لم تعطك الأسباب ، كان لك سند من اللّه تعالى .

والتوكل عمل القلوب وليس عمل الجوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، على أننا لابد أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ إنك حين تتوكل على اللّه إنما تتوكل على ربك ورب هذا الكون الذى سخر لك كل شيء فيه ، حتى الأشياء التى فوق قدرتك كالشمس والمطر والرياح إلى آخر ذلك من قوى الكون المسخرة لخدمتك ، فاللّه تعالى خلق لك ما تزرعه وما تركبه وما تأكله وما تشربه وجعل هذا الكون كله يعمل من أجلك ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من عبده المؤمن أن يقول دائماً مخلصاً من قلبه

﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] . وأن يطابق هذا القول العمل فلا يقول ذلك بلسانه وينصرف بجوارحه لعمل لشيء آخر ، أو يقول بلسانه ويهمل الأخذ بالأسباب التى سخرها له رب العزة سبحانه وتعالى .

○○○

إخلاص التوكل

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

أى : لا أريد إلا الصلاح ؛ صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتى والله لا يكلف نفساً إلا وسعها وقوله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفق فى العمل قد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة لله سبحانه وتعالى ، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق لأن الأعمال بالنيات ، ولابد وأن تكون نيتك خالصة لله تعالى (١) .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ حين تسمع إنساناً

---

(١) أخرج البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

يقول على اللّٰه توكلت ، قل له أتوكلت على اللّٰه وحده ؟ فإن قال لك وعليك أيضاً فاعلم أن مسألته لن تقضى [1] .

أما إذا توكل على اللّٰه وحده فلا بد أن يقضى اللّٰه له حاجته ، ذلك مثل الرجل الذى يدخل المسجد لأنه يريد أن يتكلم مع فلان الذى دخل إلى المسجد فى أمر من أمور الدنيا وساعة يحدث هذا يجب أن تقول له : إن شاء اللّٰه إن اللّٰه لن يقضى هذا الأمر ، تماماً كالذى جاء يبحث عن ناقته التى ضلت ، جاء يبحث عنها وينادى فى المسجد ، فقال له رسول اللّٰه ﷺ :

---

(١) لأنه فى هذه الحالة قد جعل ندًا للّٰه تعالى ، وهو ما نهى عنه رسول اللّٰه ﷺ فيما يرويه ابن عباس رضى اللّٰه تعالى عنهما عند أحمد فى المسند [١/٢١٤] أن رجلًا قال للنبى ﷺ : ما شاء اللّٰه وشئت ، فقال له النبى ﷺ : « أجعلتنى واللّٰه عدلًا ؟ بل ما شاء اللّٰه وحده » . وصححه الأرناؤوط .

وفى تاريخ بغداد [٨/١٠٤/٤٢١٨] عن ابن عباس رضى اللّٰه تعالى عنهما قال ؛ قال رجل للنبى ﷺ : ما شاء اللّٰه وشئت ، فقال : « أجعلتنى للّٰه ندًا ؟ قل : ما شاء اللّٰه وحده » .

« لا ردَّ اللَّه عليك ضالتك » [1] والذى جاء لعقد صفقة فى المسجد قال له النبى عليه الصلاة والسلام : « لا أربح اللَّه تجارتك » [2] يؤخذ من ذلك : ألا نسحب الدنيا معنا داخل المسجد .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى أرجع إليه فاللَّه سبحانه وتعالى هو البداية والنهاية بالنسبة لنا جميعاً ، وما دامت المسألة

---

(١) أخرج مسلم [٧٩/٥٦٨] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « من سمع رجلًا ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها اللَّه عليك فإن المساجد لم تبن لهذا » .

(٢) روى الترمذى [١٣٢١] وصححه الألبانى ، عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح اللَّه تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا : لا رد اللَّه عليك » .

قال : أبو عيسى حديث أبى هريرة حديث حسن غريب ، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ؛ كرهوا البيع والشراء فى المسجد . وهو قول أحمد وإسحاق ، وقد رخص فيه بعض أهل العلم فى البيع والشراء .

أن التوفيق بيد اللّٰه سبحانه وعليه التوكل وإليه المصير فأنت غير محتاج إلى غير اللّٰه جل جلاله ، فأخلص النية ، وأصدق القول والعمل ، وصدق اللّٰه العظيم إذ يقول : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

○○○

رذيلة البخل

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء : ٣٧] لقد جاء بالمقابل للأريحية والجود وبسط اليد وهو البخل ، والبخل هو : المشقة فى الإعطاء فعندما يأتى الإنسان ليعطى شيئاً فهو يجد فى العطاء مشقة ، أما المؤمن فهو مرزوق ببسطة الكف والأريحية ، أى : أنه يرتاح للمعروف .

والبخل الذى هو مشقة فى العطاء قد يتعدى حتى يضن هذا البخيل بالشىء الذى لا يضر بذله ولا ينفع منعه، ولكنها النفس البخيلة التى لا ترغب فى العطاء حتى ولو فى ذات نفسه ، وها هو الشاعر يصور البخيل وهو يبخل على نفسه وإذا كان إنسان ما قد بخل على نفسه فكيف يجود على غيره . إن الشاعر يذم واحداً اسمه عيسى وهو بخيل حتى على نفسه فيما لا يضر بذله ولا ينفع منعه فيقول :

يُقَتِّرُ عيسى على نفسِهِ وليسَ بِباقٍ وَلاَ خالِدِ

فَلو يستطيعُ لِتقْتِيرِهِ تَنَفَّسَ مَن مِنخَرٍ واحدِ

إنه بخيل إلى الدرجة التى يضنُّ بها على نفسه ، فلا يتنفسْ بفتحتى أنفه ، ولكنه لو استطاع أن يتنفس بفتحة أنف واحدة لمصلحة ما ، أو فائدة تعود عليه ، لفعل لو استطاع .

وهناك شاعر آخر صور البخيل صورة تمنع عن هذا البخيل الأريحية والكرم فيقول :

لو أَنْ بَبيْتِكَ يا بنَ عَمِّ مُحَمَّد إبَرٌ يَضِيقُ بها فَضاءَ المنزلِ

وأتاكَ يوسُفُ يستعيرُك إبرةَ لِيَخِيطَ قدَّ قَمِيصِهِ لم تَفْعلِ

إنه بخيل حتى بإبرة واحدة لو طلبها منه سيدنا يوسف عليه السلام الذى قُدَّ قميصه من دبر ، أثناء محاولة امرأة عزيز مصر مراودته عن نفسها ، فلن يعطيه .

إذن .. البخل هو أن يضيق الإنسان بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بعطاء شىء لا يضره أن يبذله ولا ينفعه أن يمنعه ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ

خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٠]

إن الحق سبحانه يتوعد البخيل بطوق مما بخل به يطوق به عنقه فلو أن البخيل قد بذل قليلاً لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة ، لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثقلاً .

لقد قال الحق أيضاً عن الذين يكنزون الذهب والفضة : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة] .

إذن .. فكلما زاد رصيدهم من كنز الذهب والفضة مع عدم الإنفاق في سبيل الله ، زاد وقود النار التي يحرقون بها ، والتي تكوى بها : الجباه ، والجنوب ، والظهور .

إذن .. فالإنسان عليه أن يخفف عن نفسه الكيّ بما يكنز ، والبخلاء الذين بخلوا على أنفسهم ، وامتنعوا عن إعطاء الناس

من مال اللّه لا يكتفون بذلك ، بل يحبون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ، فيؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً فيقول البخيل للمنفق فى سبيل اللّه لا تنفق .. لماذا ؟ حتى لا يكون هناك من هو أفضل منه .

إذن .. فالبخيل يعرف أن الكرم أفضل من البخل ، ولكنها نفسه الأمّارة بالسوء .

والدليل أنه يطلب من الناس جميعاً أن يكونوا بخلاء ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء : ٣٧] .

والبخل كما عرفنا ضَنٌّ بما آتاه اللّه للإنسان على من لم يؤت . والبخلُ ليس فى المال فقط إنما هو فى كل موهبة من المواهب ، فمن يَضِنُّ بموهبته على غيره فهو بخيل ، فالذى يبخل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة بخيل ، والذى يبخل بما عنده من علم على من لا يعلم بخيل ، والذى يبخل حتى على السفيه بالحلم بخيل ، فما دام الإنسان يملك طاقة من الحلم فلماذا لا يبذلها على تحمل السفيه ؟

إذن .. البخل هو أن يمنع الإنسان شيئاً قد وهبه اللّه له عن واحد محتاج ومن الأمثلة على ذلك : البارع فى صنعة ما ثم يضن بأسرارها على تلاميذه هذا لون من البخل .

وأسوأ أنواع البخل هو ما اقترفه هؤلاء الذين آتاهم اللّه الكتاب ، وعرفوا صفات الرسول ﷺ ، بل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم ما عرفوا - وهو الرسول ﷺ - كفروا به وكتموا ما عرفوا عن الناس .

وهكذا صارت موهبة العلم بالصادق المصدوق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمراً مكتوماً عند هؤلاء ، وهذا بخل فى القمة ، وهم لا يكتفون بذلك بل يأمرون الناس بإنكاره ﷺ وعدم تصديقه ؛ ليس هذا فقط ، بل يقولون لهم أنتم أهدى منه سبيلا ، ونحن نعرف أن الأنصار من الأوس والخزرج الذين هاجر إليهم الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، هؤلاء الأنصار رضى اللّه تعالى عنهم كانوا يملكون الأريحية الإيمانية فساعة جاءهم المهاجرون من مكة ، آخوهم وقاسموهم المال ، حتى النعمة التي غرس اللّه فى قلب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد

حتى ولو كان كارهاً لها ، وهى .. نعمة الزوجة ، حتى هذه النعمة حاول بعض الأنصار أن يُطلّق امرأة من زوجاته ليزوجها إلى أخيه المهاجر ؛ ونحن نرى فى الحياة أن الإنسان قد يكره زوجته ويكره أيضاً أن يطلقها أو أن يتزوجها أحد بعد طلاقها ولكنه إيثار المؤمن لأخيه المؤمن [1] .

---

(١) أخرجه البخارى [٣٧٨١] عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال : قَدِمَ علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع - وكان كثير المال - فقال سعد : قد علمت الأنصار أنى من أكثرها مالاً ، سأقسم مالى بينى وبينك شطرين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأُطلّقُها حتى إذا حَلَّت تزوجتها .

فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك . فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئًا من سَمنٍ وأقط ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وَضَرٌ من صُفْرة . فقال له رسول الله ﷺ : « مَهْيَم ؟ » قال : تزوجت امرأة من الأنصار فقال : « ما سُقتَ فيها ؟ » قال : وزنَ نواة من ذَهب - أو نواةً من ذهب - فقال : « أولِمْ ولو بشاة » .

والحق سبحانه وتعالى يُصعّد أريحية الأنصار ، حتى أن الأنصاريَّ يأتى بالمهاجر ويقول له : انظر إلى زوجاتى فما يروقك منهن أطلقها وتتزوجها .

إن الأنصارى المؤمن يضرب المثل فى الأريحية ، فالمؤمن حين يكون فى نعمة فهو يحب أن يُعدِّى أثر نعمته على غيره ، وهذا ارتقاء إيمانى فى ذوات الأنصار فحين استقبلوا المهاجرين كانوا يعلمون أن المهاجرين تركوا وراءهم أموالهم ومساكنهم ونسائهم وخرجوا مهاجرين إلى اللَّه تعالى ورسوله ﷺ وكان من بين هؤلاء المهاجرين شباب فيهم فتوة وأهاليهم محبوسون فى مكة ولا يوجد مع المهاجر منهم زوجته ولذلك عمل الأنصار على تزويج المهاجرين لينفسوا عن عواطفهم لأن أقل ما فى ذلك أن يُعِفَّ الأنصارى أخيه المهاجر وهذا سَدَّ لباب قد يدخل منه الشيطان .

ooo

عداوة الأخِلاَّء

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [النساء : ٣٨] الحق سبحانه وتعالى يبين لنا فى آخر هذه الآية السبب الذى جمعهم على ذلك ؛ إنها أسباب متعددة يجمعها كلمة : « شيطان » فكل من يمنع إنساناً من فعل الخير فهو شيطان ، أو من فعل الشيطان . ابتداء من شهوات النفس ، أو غفلة العقل عن المنهج ، أو قرين سوء يُزيّن للإنسان الفحشاء أو شيطان يوسوس . كل ذلك نسميه « شيطان » ، أو من فعل الشيطان ، لأنه يبعد الإنسان عن المنهج وهناك شياطين الجن وشياطين الإنس ، والنفس حين تُحدِّث صاحبها بألا يلتزم بمنهج اللّٰه تعالى فهى تغريه بالشهوات التى سيفقدها عند تقيده بمنهج اللّٰه تعالى ، ونقول لصاحب هذه النفس : إنها شهوة عاجلة أضاعت منك مُتعاً لا حدود لها آجلة .

إذن .. السبب الذى جعل هؤلاء يبخلون ويأمرون الناس بالبخل هو الشيطان ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾ [النساء : ٣٨] .

وساعة يكون الشيطان قريناً فهو مقترن بالإنسان ، ولذلك يسمون « القِرن » بكسر القاف هو العدو الذى ينازله الإنسان ويسمون « القَرن » بفتح القاف هو الزمن الذى يقرن جيلاً بجيل ، وعندما يكون الشيطان قريناً فهو إذاً مقترن بالإنسان ، ملازم له ، فبئس القرين هذا ، لماذا ؟ لأن القرين الذى لا يحض الإنسان على الخير بل يحضه على الانفلات من منهج اللّٰه واتّباع شهوات الغيّ ، هو قرين سوء ، ولذلك كل الذين اجتمعوا فى الدنيا على معصية اللّٰه تعالى ستجدهم فى الآخرة أعداء ألداء ، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

○○○

البخيل ييسر للطائع طاعته !!

إن البخيل قد حرم نفسه من ماله وادخره .. فلمن ادخره ؟ إنه ادخره لبشر آخرين وما دام الادخار لأناس آخرين ، فهذا يعنى أن رزق البخيل ضيق وهم الذين سيأخذونه .. فهم إذاً رزقهم هم أوسع منه .

والبخيل حين يكنز المال ويحافظ عليه فهو قد ييسِّر سبيلاً لمن يُعطى ، ولنفرض مثلاً أن واحداً كان كريماً للغاية وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل ، والناس كلهم أمل فى مساعدته ، ودخل هذا الكريم لم ينهض بتبعاته فإن كان يملك عددًا من العمارات السكنية ، أو من الأرض ، فقد يضطر لبيع شيئاً مما يملك لينفق منه ، وعندما يريد أن يبيع فسيشترى منه الذى يكنز المال .

إذن .. البخيل هو الذى يدبر للمنُفِق ما ينفقه ، إنه ييسر سبيل الطاعة للمحسن ، إن البخيل لن يبخل إلا على نفسه ، وكما قلنا لصاحب السيئة : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من

الله ولكنك اختلست شهوة ستلهبك حتى تفعل الكثير من الحسنات لتذهب السيئات كما قال ربنا سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

ورحم الله القائل : رب معصية أورثت ذلاً وإنكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً .

○○○

سبب البخل

قال اللّه تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

الخزائن هى : ما يحفظ فيها الشىء النفيس ، الذى له قيمة ، قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] أى : أن كل شىء عند اللّه تعالى موجود ، وحينما تحين ساعة ميلاده يبرزه إلى عالم المشاهدة ولذلك الحق سبحانه وتعالى حينما تحدث عن خلق السماوات والأرض ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : أن الحق سبحانه قدّر أقوات المخلوقات جميعًا ووضعها فى الأرض يوم أن خلقها .

والقوت هو : ما به استبقاء الحياة ، وهو ناشىء من الأرض التى تخرج الزروع والثمار .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى تصديقات من طموحات العلم فيجعل العلم يهتدى إلى أشياء ذكرها القرآن منذ نزوله قبل أربعة عشر قرناً من الزمان لذلك عندما حللّوا عناصر الإنسان يوم حللوها وجدوها ستة عشر عنصراً رئيسى ، بدأت بالأكسجين ثم الكربون والنتروجين والهيدروجين والفوسفات والفوسفور والحديد والصوديوم والفلور والكلور .. إلى أن وصلت إلى المنجنيز ، المهم أنها ستة عشر عنصراً رئيسيا . وبعد ذلك حللّوا تربة الأرض التى تنبت الزرع فوجدوا أنها ستة عشر عنصراً رئيسيا أيضا .

إذن .. اللّٰه سبحانه خلقنا من طين ويطعمنا من عناصر هذا الطين أيضاً وهذا ما أثبته العلم لأن الزرع يخرج من الطين وفيه عناصر هذا الطين .. الذى خُلِقَ منه الإنسان ولكن كيف يأتى هذا الطين وما طريقة تكوينه ؟ الطين يأتى من الجبال فالشمس تلقى بأشعتها على الجبال فتحدث فيها حرارة ، وبعد ذلك يأتي برد الليل فيحدث تشققاً فى هذه الجبال ، ثم يأتى المطر فيفتت مادة هذه الجبال ويجرفها معه إلى الوديان حيث تحمله

الأنهار وهو ما يسمى : الطمى أو الغرين ، وهى التى تخصب التربة وتعطيها الطبقة الطينية التى ينبت فيها الزرع .

إذن .. الجبال هى مخازن الأقوات ، فحين يذكر الحق سبحانه وتعالى البركة فى الأرض وتقدير الأقوات فيها بعد ذكر الجبال فهو بذلك يعطينا تسلسل العملية ، ولو لاحظنا تكوين الجبال والوديان لوجدنا الوادى هو منخفض بين جبلين ، والجبال دائماً لها قمم فليس هناك جبل مسطح بدون قمة ، هذه القمة مثل رأس المثلث ، والوادى على العكس مثلث قاعدته فى أعلى ورأسه إلى أسفل ، فحين ينزل الطمى أو الغرين من قمة الجبل ينزل فى الوادى فترتفع أرضه شيئاً فشيئاً ولذلك فإن مدينة دمياط مثلاً كانت فوق البحر مباشرة ومع استمرار تدفق الطمى مع فيضان النيل سنوات طويلة وسع مساحة الأرض على ساحلِ البحر ولما امتنع الغرين بعد بناء السد العالى وتوقف الفيضان بدأت هذه المساحات فى التراجع والتأكل بفعل احتكاك مياه البحر بالأرض .

إذن .. قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت : ١٠] كشف الله تعالى لهم صدقه .. بمنطق العلم الحديث الذى يفهمونه ، ولكن لأن الإنسان دائماً حريص وشحيح فحتى خزائن رحمة الله مع عظم اتساعها وضخامتها والتى لا يعلم ما فيها إلا الله تعالى ، لوَ ملَّكها سبحانه لهؤلاء الناس لأمسكوا عن الإنفاق منها خشية أن تنفد ، لأن الإنسان مجبول على أنه « قتور » يخشى على ما عنده من النفاد حتى لو كان هذا الشىء هو خزائن رحمة الله سبحانه وتعالى ، والتقتير يكون على النفس ، والبخل يكون على الغير .

○○○

أسباب الشح

شح النفس سببه أن الإنسان لا يأمن على غده ، لذلك فهو يحاول إن كان يملك شيئاً أن يؤمّن ذلك الغد فتجده يحافظ على ما عنده من حاجات ، لذلك سُنَّت قوانين الحيازة والملكية والمتاعية ، ونشأت هذه الأشياء لا أقول من أول الخلق .. ولكن يوم أن ضاقت الأمكنة المعطية عن حاجات الناس ، ذلك أنه حين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا يكون هناك خوف من الغد ، مثال ذلك : لنفترض أن رجلاً اشترى صندوقاً من البرتقال فإذا ما قام ابن هذا الرجل وأخذ برتقالة أو اثنتين فلا يؤثر فى الصندوق لأن به كمية كبيرة تكفى لذلك وتفيض ، ولكن لو هذا الرجل أحضر كيلو من البرتقال مثلًا فإنه فى هذه الحالة يكون حريصاً على أن يقسم البرتقال بين أولاده ، ولا يترك كل ابن يأخذ على هواه .

وهكذا كان الأمر فى بدء استخلاف الإنسان فى هذه الأرض ، فمن أراد مساحة من الأرض أخذها واستعمرها

وأخرج ثمارها ، ومن أراد العمل ، ففى الأرض متسع لكل عامل لكن التميزات الملكية ظهرت حين بدأ النقص فى هذه الأشياء فبدأت الحدود ، والقوانين .. إلخ . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن : ١٠] .

والحق سبحانه وتعالى يأتى فى هذه المسألة ويقول : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] والنفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية ، لوجدت أنك أيها العبد مضارِب فى خير الله ، ومعنى « مضارِب » : أى أنك تعمل عند الله بالعقل الذى خلقه لك ، وتخطط بهذا العقل ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها الله ، والمادة التى خلقها الله لك تنفعل معها وهذا يعنى : أن كل شىء لله ، وأنت أيها الإنسان مجرد مضارب وما دمت مضارباً فأعط لله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ، فهو سبحانه أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر على أن يتفاعل مع المادة ليكون مضارباً ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أن الله قد استكثر عليك ما وهبك فطلب منك أن تنفقه أو تنفق منه ، ولكن الله

حين يأخذ منك لأخيك وأنت قادر إنما يؤمنك سبحانه إن عجزت ، فسيأخذ لك من القادرين ليسد عجزك ويكفيك مؤنتك ، وذلك هو التأمين فى منهج اللّه تعالى .

إن الحق يرغبنا فى أن ننفق ، لكن بعض الناس يحاول أن ينفق مما لا فائدة منه عنده ، فيهدى مثلًا الثوب الذى بُلى ، ولم يعد صالحاً للاستعمال لفقير ، أو يعطى الحذاء القديم لواحد محتاج ، أى : أن الإنسان لا ينفق إلا ما هو زاهد فيه ، اللّه يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة الرسول صلى اللّه عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] فهذا طلحة بن عبيد اللّه حينما يسمعها يقول يا رسول اللّه إن أحبَّ مالىٰ إلىَّ هو « بئر حاء » فأنا أخرجه فى سبيل اللّه ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « اجعله فى أقاربك » فجعله فى أقاربه .

وهذا زيد بن حارثة انفعل مع الآية الكريمة وكان عنده فرس اسمه « دنديل » وكان يحبه ، فقال يا رسول اللّه أنت تعلم

حبى لفرسى وأنا أنفقه فى سبيل اللّه ، فأخذه منه رسول اللّه ﷺ وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس ، فقال زيد : فوجدت فى نفسى ، أى : أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول اللّه أنا أردت أن أُنفق الفرس فى سبيل اللّه وأنت تعطى الفرس لابنى ليركبه .

فقال رسول اللّه لزيد : « أما أن اللّه قد قبله منك » .

وينفعل سيدنا أبو ذر رضى اللّه تعالى عنه وكان عنده إبل لها فحل وهو ذكر قوىّ وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر إليه ، وجاء ضيف إلى أبى ذر فقال له : إنى مشغول فاخرج إلى إبلى فاختر خيرها ليذبحه ، فخرج الضيف ثم عاد فى يده ناقة مهزولة فلما رآها أبو ذر قال : واللّه لقد خنتنى ، قلت لك : هات خير الإبل ، قال الضيف يا أبا ذر لقد رأيت خيرها فحلاً لك وقدرت يوم حاجتكم إليه ، فقال أبو ذر : إن يوم حاجتى إليه يوم أن أضع رأسى فى التراب .

إن الصحابى الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع فى الحفرة هو اليوم الجليل الذى يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما كان عنده جارية جميلة من فارس وكان يحبها فلما سمع الآية .. قال : ليس عندى أحب من هذه الجارية ، وأعتقها . فلما أعتقها وكان من الممكن أن يتزوجها لكنه قال لولا أن ذلك يقدح فى عتقها لتزوجتها .

وسيدنا أبو ذر رضى الله عنه يعطينا فى مسألة الإنفاق درساً من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية فيقول : فى المال شركاء ثلاثة :

الشريك الأول : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ، أى أن القدر لا يستأذن عبداً فى أن يذهب المال حيث يريد ، فتأتى أى مسألة لتأخذ المال إلى هلكة أو موت .

والشريك الثانى فى المال يوضحه لنا أبو ذر فيقول : الوارث ينتظرك إلى أن تضع رأسك ، ثم يشاقها وأنت ذليل ، إن الوارث يقول لنفسه : « لأستمتع بما ترك لى » .

والشريك الثالث فى المال : أنت ، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها . أى : إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، إنما عليك أنت أن تغلب على مالك بإنفاقه فى سبيل الله وإلا لأخذ الشركاء منك المال .

إذن .. لقد انفعل صحابة رسول الله ﷺ بالآية حينما نزلت بصورة تبين عن مدى الخير المحبوب منهم إلى غيرهم وكان جزاء ذلك الجنة (١) .

---

(١) أخرجه البخارى [٤٥٥٥] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه « بير حاء » وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أُنزلت : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة فقال يا رسول الله ، إن الله تعالى يقول : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلى « بيرحاء » وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال رسول الله ﷺ : « بخ ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » . قال أبو طلحة : =

= أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

ورواه الترمذى [٩٩٧] ، والنسائى فى المجتبى [٦/٢٣١] ، وأحمد فى المسند [٣/١١٥] ، وابن خزيمة [٤/١٠٣] ، والبيهقى فى السنن الكبرى [٤/٩٤] ، وأبو يعلى [٦/٤٦٣] ، والدارقطنى فى سننه [٤/١٩١] .

وروى الحاكم فى المستدرك [٣/٥٦١] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : تلوتُ هذه الآية : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] فذكرت ما أعطانى الله تعالى فما وجدت شيئًا أحب إلى من جاريتى رضية ، فقلت : هى حرة لوجه الله عز وجل ، فلولا أنى لا أعود فى شىء جعلته لله عز وجل لنكحتها ، فأنكحها نافع ، فهى أم ولده .

وقال السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير قول الله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، أخرج عبد بن حميد عن ثابت بن الحجاج قال : « بلغنى أنه لما نزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قال زيد : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلى من فرسى هذه فتصدق بها =

= على المساكين . فأقاموها تباع وكانت تعجبه ، فسأل النبى ﷺ فنهاه أن يشتريها » .

وأخرج ابن جرير عن ميمون بن مهران أن رجلًا سأل أبا ذر أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة عماد الإسلام ، والجهاد سنام العمل ، والصدقة شىء عجيب .

فقال : يا أبا ذر لقد تركت شيئًا هو أوثق عملى فى نفسى لا أراك ذكرته ! قال : ما هو ؟ قال : الصيام ! فقال : قربة وليس هنا وتلا هذه الآية : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن رجل من بنى سليم قال : جاورت أبا ذر بالربذة وله فيها قطيع إبل ، له فيها راع ضعيف فقلت : يا أبا ذر ألا أكون لك صاحبًا أكنف راعيك وأقتبس منك بعض ما عندك لعل الله أن ينفعنى به ؟ فقال أبو ذر : إن صاحبى من أطاعنى فإما أنت مطيعى فأنت لى صاحب وإلا فلا .

قلت : ما الذى تسألنى فيه الطاعة ؟ قال : لا أدعوك بشىء من مالى إلا توخيت أفضله .

قال : فلبثت معه ما شاء الله ثم ذكر له فى الماء حاجة فقال : ائتنى ببعير من الإبل فتصفحت الإبل فإذا أفضلها فحلها =

= ذلول فهممت بأخذه ثم ذكرت حاجتهم إليه فتركته وأخذت ناقة ليس فى الإبل بعد الفحل أفضل منها فجئت بها فحانت منه نظرة فقال : يا أخا بنى سليم خنتنى . فلما فهمتها منه خليت سبيل الناقة ورجعت إلى الإبل فأخذت الفحل فجئت به فقال لجلسائه : من رجلان يحتسبان عملهما ؟ قال رجلان : نحن .

قال أما لا فأنيخاه ثم اعقلاه ثم انحراه ثم عدوا بيوت الماء فجزئوا لحمه على عددهم ، واجعلوا بيت أبى ذر بيتا منها ففعلوا . فلما فرق اللحم دعانى فقال : ما أدرى أحفظت وصيتى فظهرت بها أم نسيت فأعذرك ؟ قلت : ما نسيت وصيتك ولكن لما تصفحت الإبل وجدت فحلها أفضلها فهممت بأخذه فذكرت حاجتكم إليه فتركته ، فقال : ما تركته إلا لحاجتى إليه ؟ قلت : ما تركته إلا لذلك ، قال : أفلا أخبرك بيوم حاجتى ؟ إن يوم حاجتى يوم أوضع فى حفرتى فذلك يوم حاجتى . إن فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا ينتظر أن يذهب بخيرها أو شرها ، والوارث ينتظر متى تضع رأسك ثم يستفيئها ، وأنت ذميم ، وأنت الثالث فإن استطعت أن =

= لا تكونن أعجز الثلاثة فلا تكونن مع أن الله يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن هذا المال مما أحب من مالى فأحببت أن أقدمه لنفسى .

وأخرج أحمد عن عائشة قالت : « أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول الله أفلا نطعمه المساكين ؟ قال : « لا تطعموهم مما لا تأكلون » [1] .

وأخرج ابن المنذر عن نافع قال : كان ابن عمر يشترى السكر فيتصدق به ، فنقول له : لو اشتريت لهم بثمنه طعامًا كان أنفع لهم من هذا فيقول : إنى أعرف الذى تقولون ، ولكن سمعت الله يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وابن عمر يحب السكر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ ... ﴾ قال : الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : لن تنالوا بركم حتى تنفقوا مما يعجبكم ومما تهوون من أموالكم .

قال القرطبى فى تأويل قول الله تعالى : =

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١٠٥/٦] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

= ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فيه مسألتان :
الأولى : روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قال أبو طلحة : أن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أنى جعلت أرضى لله ، فقال رسول الله ﷺ : « اجعلها فى قرابتك » فى حسان بن ثابت وأُبى بن كعب .
وفى الموطأ : وكانت أحب أمواله إليه « بئر حاء » وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، وذكر الحديث ففى هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك كثيرة ، كذلك فعل زيد بن حارثة عمد مما يحب إلى فرس يقال له : « سبل » وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلى من فرسى هذه فجاء بها إلى النبى ﷺ فقال : هذا فى سبيل الله ، فقال لأسامة بن زيد اقبضه ، فكأن زيدا وجد من ذلك فى نفسه فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد قبلها منك » . =

= وذكره أسد بن موسى .

وأعتق ابن عمر نافعًا مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد اللَّه بن جعفر ألف دينار . قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تأول قول اللَّه عز وجل : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

وروى شبل عن أبي نجيح عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتح مدائن كسرى ، فقال سعد بن أبي وقاص : فدعا بها عمر فأعجبته ، فقال : إن اللَّه عز وجل يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فأعتقها عمر رضى اللَّه تعالى عنه .

وروى عن الثورى أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خيثم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لى : يا فلانة أعطى السائل سكراً فإن الربيع يحب السكر .

قال سفيان : يتأول قوله عز وجل : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشترى أعدالا من السكر ويتصدق بها فقيل له : هلا تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحب إلى فأردت أن أنفق مما أحب . =

= وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ولا تدركوا ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانية : واختلفوا فى تأويل البر فقيل : الجنة . عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون ، والسدى ، والتقدير : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

والنوال : العطاء ؛ من قولك نولته تنويلًا أعطيته ، ونالنى من فلان معروف ينالنى ، أى : وصل إلى ، فالمعنى : لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون .

وقيل : البر العمل الصالح وفى الحديث الصحيح : « عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة » [1] =

---

(١) أخرجه مسلم [١٠٥/٢٦٠٧] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة وما زال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ومازال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا .

والترمذى [١٩٧١] ، وبنحوه البخارى [٦٠٩٤] ، وأبو داود [٤٩٨٩] ، وابن ماجه [٤٨٤٩] .

= وقال عطية العوفى : يعنى ، الطاعة عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء ، تأملون العيش ، وتخشون الفقر .

وعن الحسن : ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُوا ﴾ هى : الزكاة المفروضة ، مجاهد والكلبى : هى منسوخة نسختها آية الزكاة . وقيل ، المعنى : حتى تنفقوا مما تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات ، وهذا جامع .

وروى النسائى عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذر قال : قلت حدثنى قال : نعم قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن كانت إبلا فبعيرين . وإن كانت بقراً فبقرتين[1] .

وقال أبو بكر الوراق : دلهم بهذه الآية على الفتوة [2] =

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [١٥١/٥] عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

(٢) الفتوة : يعبر بها عن مكارم الأخلاق .

لقد عرفوا قول الحق : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ ﴾ أى : الجنة المترتبة على الطاعة والتقوى وكلها معان ملتقية .

إذن .. الحق سبحانه يعطى البر ثمناً لإنفاقك مما تحب ، ويعلم سبحانه كل شىء ، وهو الذى يعرف هل أنفقت مما تحب فعلاً أم تيممت الخبيث منه لتنفقه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك فى هذا الأمر لأن الذى يعطى البر ثمناً لإنفاق ما تحب يعلم خبايا النفس ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] وعلم الله شامل ، فهو سبحانه يعلم ما فى نيتك وكيف أنفقت .

○○○

= أى : لن تنالوا برى بكم إلا ببركم إخوانكم ، والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم ، فإذا فعلتم ذلك نالكم برّى وعطفى .
قال مجاهد : هو مثل قوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا ﴾ [الإنسان : ٨] .

تفسير القرطبى [٤/١٣٢:١٣٤] .

تحريم الإنفاق رئاء الناس

الحق سبحانه وتعالى يخبرنا عن لون آخر من المقابل للبخيل ، وهو المنفق لغاية غير حميدة لماذا ؟ لأنه ينفق رئاء الناس ، لذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر من يثمن عطاءك .

إنك عندما تعطى شيئاً لإنسان فإنه يثمنه بقدرته سواء بكلمة ثناء أو غير ذلك لكن الله يثمن الأمر بشكل مختلف ، ولذلك لما جهز سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه جيش العُسرة قال رسول الله ﷺ : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم »(1) لماذا ؟ لأنه باع بضاعته إلى صاحب كل الفضل ، فالذى يعطى رئاء الناس نقول له : لقد اخترت الشىء التافه لأنك ما ثمَّنت

---

(1) روى الترمذى [٣٧٠١] عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره ، فجعل يقلبها فى حجره ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » مرتين ، وأحمد فى المسند [٦٣/٥] والحاكم فى المستدرك [١٥١/٤٥٥٣] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى . وصححه الألبانى .

بضاعتك بل جعلتها تافهة الثمن ، فرئاء الناس لن يعطيك ثواب الله ، فماذا يقدر الناس على عطائك إنهم قد يحسدونك على النعمة ، وقد يتسلط عليك شرارهم لينهبوها منك فلماذا ترائيهم ؟

الحق سبحانه قد قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] لقد اشترى الله تعالى من المؤمنين أنفسهم التى هو سبحانه خالقها ، وأموالهم التى هى موهوبة لهم منه سبحانه ، وأعطى على ذلك الثمن الكبير نعيما خالداً لا يفوتهم ويذهب لغيرهم ، ولا يفوتونه بموت أو خلافة ، لقد أعطى الجنة ، والجنة شىء غال ونفيس (١) ، لا يعدله شىء . الذى ليس فيه أغيار لقد أعطاهم الجنة التى لا تفوتهم ولا يفوتونها .

---

(١) روى الترمذى [٢٤٥٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » وقال : هذا حديث حسن غريب . والحاكم فى المستدرك [٣٤٣/٤] وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وعبد بن حميد فى المنتخب [١٤٦٠] .

إذن .. من يُرائى الناس هو من أهل الخسران ولا يعرف أصول التجارة ، ولم يعرف مع من يتاجر ، لذلك شبهه الله فى آية أخرى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ [البقرة :٢٦٤] والصفوان هو المروة وهى زلطة كبيرة وعليها قليل من التراب ، والمروة ناعمة فإذا ما نزل عليها الماء أزال كل التراب ولم يبقى عليها شىء .

إذن .. لا ينفق أحد رئاء الناس إلا من كان ضعيف الإيمان غير مُلِمّ بأصول البيع والشراء لأن الإنسان إن أراد أن يبيع سلعة وهناك تاجر يشترى منه بسعر غالٍ ومضمون فما الذى يجعله يلقى بها تحت أقدام آخرون لا يقدرون على تثمينها ، وحتى لو قدروا فسيكون الثمن بخس بالقياس إلى ما وعد الله عباده .

ولذلك قلنا : فليحذر كل واحد حين يعطى ، أن يتباهى أمام الآخرين أنه أعطى ، أو يحب أن يعلم الآخرين أنه

أعطى فالإنسان لا يجب أن يقوم بالدعاية أنه أعطى ، لذلك قال النبى ﷺ : « رجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) لماذا ، لأن الرسول ﷺ يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » (٢) لذلك فليستر الإنسان إنفاقه فى سبيل اللَّه عن أعين الناس حتى يفوز بالخير كله عند اللَّه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق على مجال الإعطاء فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقره : ٢٧١] .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٤٢٣] ، ومسلم [١٠٣١] والترمذى [٢٣٩١] ، والنسائى فى المجتبى [٢٢٢/٨] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) أخرجه البخارى [١٤٢٩] ، ومسلم [٩٤/١٠٣٣] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، فاليد العليا هى المنفقة ، والسفلى هى السائلة » .

الاحتراز من صفات المنافقين

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] . الناس فى الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال : إما مؤمن وإما كافر وإما منافق . والله سبحانه وتعالى فى بداية القرآن الكريم فى سورة البقرة .. أراد أن يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون عرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى ثلاث آيات فى قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة] .

والفئة الثانية عليه السلام : هم الكفَّار ، وعرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

وجاء للمنافقين فعرَّف صفاتهم فى ثلاث عشرة آية متتابعة لماذا ؟ .. لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، أما الكافر فنحن نتقيه ، ونحذره لأنه يعلن كفره .

إن المنافق يتظاهر أمامك بالإيمان ، ولكنه يبطن الشَّر والكفر ، وقد تحسبه مؤمناً فتطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً للطعن فى الدين .. وقد خلق الله فى الإنسان ملكات متعددة ولكى يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه لابد أن تكون ملكاته منسجمة وغير متناقضة ، فالمؤمن ملكاته منسجمة لأنه اعتقد بقلبه فى الإيمان ، ونطق لسانه بما يعتقد فلا تناقض بين ملكاته أبداً . والكافر رفض الإيمان وأنكره بقلبه ، ولسانه ينطق بذلك . ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، إنه فقد السلام مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يُظهر غير ما يُبطن ، ويقول غير ما يعتقد ويخشى أن يكشفه الناس فيعيش فى خوفٍ عميقٍ ، وهو يعتقد أن ذلك

شئ مؤقت سينتهي . ولكن هذا التناقض يبقى معه إلى آخر يوم له في الدنيا ، ثم ينتقل معه إلى الآخرة فينقض عليه ليقوده إلى النار واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : ٢١] . فالسلام الذى كانوا يتمنونه لم يحققوه لا فى حياتهم ولا فى آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ، ورجلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى له ؟ بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس فى قلبه ولقد وصفهم الحق فى كتابه الخالد فقال سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] وهذه أول صفات المنافقين فى القرآن الكريم ، يعلنون الإيمان وفى قلوبهم الكفر ، ولذلك فإن إيمانهم كله تظاهر إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم لأنهم يتظاهرون بها ولا يؤدونها عن إيمان ، وإذا أدوا الزكاة ، فإنها تكون عليهم

حسرةً ، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها فى زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثواباً فى الآخرة وإذا قتل واحد منهم فى غزوة ، انتابهم الحزن والآسى ، لأنهم أهدروا حياتهم ولم يقدموها فى سبيل الله . وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاءاً بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يصلى أو يؤدى الزكاة أو يُستَشهد فى سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا وهم لا يرجون شيئاً .. فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء فى الدنيا والآخرة فلا هم فى الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل فى سبيل الله ، ولاهم فى الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله . ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة : ٩] [(١)] .

---

(١) قال القرطبي قال علماؤنا: معنى ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي : يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيل : في الكلام حذف تقديره : يخادعون رسول الله ﷺ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسوله =

....

= خداعا له لأنه دعاهم برسالته وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ليحقنوا دماءهم وأموالهم ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا . قاله : جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغة : أصل الخدع في كلام العرب الفساد حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي . وأنشد :

أبيضُ اللونِ لذيذٌ طعمُهُ   طيبُ الريقِ إذا الريقُ خَدَعْ

قلت : فـ ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ على هذا أي يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وفي التنزيل: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [النساء : ١٤٢] وقيل : أصله الإخفاء ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب : أنخدع الضب في جحره ؟ والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله . قال الحسن : يعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نور يوم القيامة فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا فإذا جاؤوا إلى الصراط أُطفِئ نور كل منافق فذلك قولهم : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد : ١٣] . وقال ابن جرير الطبري : فتأويل ذلك: إن المنافقين يخادعون =

= الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر استدراجا منه لهم في الدنيا حتى يلقوه في الآخرة فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم .

وفى مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني : الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه قال تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة : ٩] أي: يخادعون رسوله وأولياءه ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] وجعل ذلك خداعا تفظيعا لفعلهم وتنبيها على عظم الرسول وعظم أوليائه . وقول أهل اللغة : إن هذا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله في الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين : أحدهما : فظاعة فعلهم فيما تحرّوه من الخديعة وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون الله والثاني : التنبيه على عظم المقصود بالخداع =

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين وهى صفة تدل على غفلتهم ، وحمق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى وهل يستطيع بشرُ أن يخدع رب العالمين .

إن الله عليم بكل شئ ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر ، وما هو أخفى من السر ، وهل يوجد ما هو أخفى من السر ؛ نقول : نعم ، السر هو ما أسررت به لغيرك فكأنه يعلمه

= وأن معاملته كمعاملة الله كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ... ﴾ الآية [الفتح : ١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٢] قيل معناه : مجازيهم بالخداع وقيل : على وجه آخر مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٥٤] أي : هذا من باب المشاكلة في اللفظ . وقيل : خَدَعَ الضب ، أي استتر في جحره واستعمال ذلك في الضب أنه يعد عقربا تلدغ من يدخل يديه في جحره ، حتى قيل : العقرب بواب الضب وحاجبه ولاعتقاد الخديعة فيه قيل : أخدع من ضب .

اثنان ، أنت ومن أسررت إليه . ولكن ما هو أخفى من السر ما تبقيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً إنه يظل فى قلبك لا تسر به لإنسان والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] .

فلا يوجد مخلوق يستطيع أن يخدع خالقه ولكنهم من غفلتهم يحسبون أنهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقتٌ وغضبٌ .

وهم فى خداعهم يحسبون أيضاً أنهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون أمامهم غير ما يبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاءٌ عليهم لأنهم يعيشون فى خوفٍ مستمر وهم دائماً فى قلقٍ أو خوف من أن يكشفهم المؤمنون ، أو يستمعوا إليهم فى مجالسهم الخاصة وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الإيمان ولذلك إذا تحدثوا لابد أن يتأكدوا ، أولاً : من أن أحداً من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانياً : من أن أحداً من المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم أيضاً

وهم مع المؤمنين . فكل واحد منهم يخشى أن تفلت منه كلمة تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين .. والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم . فالله سبحانه وتعالى يعلم نفاقهم والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق فإن لم يعلموه فإن الله يخبرهم به ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد ٣٠]

ألم يأت المنافقون إلى رسول الله ﷺ ليشهدوا أنه رسول الله ففضحهم الله أمام رسوله وأنزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

جاء المنافقون إلى رسول الله ﷺ يشهدون بصدق رسالته والله سبحانه وتعالى يعلم أن هذه الشهادة حق وصدق لأنه جل جلاله يعلم أن رسوله ﷺ صادق الرسالة ولكنه فى الوقت نفسه يشهد بأن المنافقين كاذبون . كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونوا كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط أن محمداً ﷺ رسول الله ولكن قلوبهم منكرةٌ لذلك مكذبةٌ به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم إنه حقيقة إلا إنهم يكذبون ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة مافى القلب ، وهؤلاء كذبوا لأنهم فى شهادتهم لرسول الله ﷺ لم يكونوا يعبرون عن واقع فى قلوبهم بل قلوبهم تكذِّب ما يقولون ..

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم يفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين ، وينبئ رسوله ﷺ بما يضمرونه فى قلوبهم إذن فخداعهم للمؤمنين رغم أنه خداع بشر لبشر إلا أنه أحيانا تفلت ألسنتهم فتعرف حقيقتهم ، وإذا لم يفلت اللسان جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم وتكون حصيلة هذا كله أنهم لا يخدعون أحداً فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم .

إذن فسلوك المنافق لايخدع به إلا نفسه ، وهو الخاسر فى الدنيا والآخرة ، عندما يؤدى عملاً إيمانياً فالله يعلم أنه نفاق ، وعندما يحاول أن يخدع المؤمنين ينكشف ، والنتيجة أنهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعاً بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين .

قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] .

فالله سبحانه وتعالى شبَّه مافى قلوب المنافقين بأنه مرضٌ والمرض أولاً يورث السقم فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الإيمانية التى تحيى القلب فتجعله قوياً شاباً ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ماحولها وأحست إنها تعيش حياة ملؤها الكذب فاضطراب القلب جعله مريضاً ولايمكن أن يشفى الإ بإذن الله وعلاجه هو الإيمان الحقيقى الصادق ذلك الذى يعطيه الشفاء والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

إذن فالإيمان والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين فكأن المرض يزداد فى قلوبهم مع الزمن والله سبحانه وتعالى - بنفاقهم وكفرهم - يزيدهم مرضاً . وهذه هى الصفة الثالثة للمنافقين .. إنهم أصحاب قلوب مريضة سقيمة لا يدخلها نور الإيمان ولذلك فهى قلوب ضعيفة ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق . وهى قلوب خائفة من كل ماحولها ، مرتعبة فى كل خطواتها ، مضطربة بين مافى القلب ، وما على اللسان والمريض لا يقوى على شئ وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ماحولها تلك الرؤية التى تتناسب وتتفق مع فطرة الإيمان التى وضعها الله تعالى فى القلوب ، ولذلك إذا دخل المنافقون فى معركة فى صفوف جيش المسلمين .. فأول ما يبحثون عنه هو الهرب من المعركة يبحثون عن مخبأ يختفون فيه أو مكان لايراهم فيه أحد والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة : ٥٧] .

لماذا ؟ لأنهم أصحاب قلوب مريضة لا تقوى على شئ ومرضها يجعلها تهرب من كل شئ وتختفى . وليت الأمر يقتصر عند هذا الحد ولكن ينتظرهم فى الآخرة عذاب أليم غير العذاب الذى عانوه من قلوبهم المريضة فى الدنيا ، فبما كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ينتظرهم فى الآخرة عذاب أليم أشد من عذاب الكافرين .والله سبحانه وتعالى يقول :
﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] .

○○○

الفهرس

الموضوع	الصفحة

○○○

مطابع الأهرام بكورنيش النيل